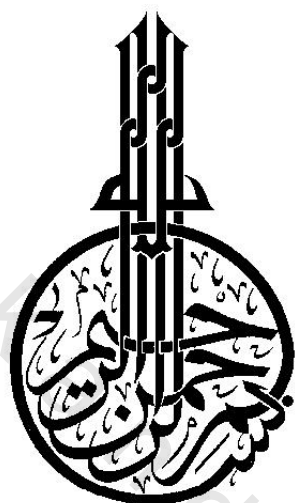


العراء

— رواية —

جاهدة شيخون





نداءات الفجر الشتوي

١

ضج البيت ، وعلا الصراخ .

شاهدتهم يترაკضون . . حسام يرفع السماعة ويضرب على
الأرقام . . سناء تبكي قرب السرير . . علي يدعوني ويعيد النداء ،
ويخرج راكضاً إلى أبيه . . وسلمى تفتح النافذة لغيش الصباح
الطالع . . تعجلّ بترتيب الغرفة . . تلمّ الحبات المبعثرة وتجمع شظايا
الزجاج المكسور . . تبدل الملاءة المبلّلة ، وتفتح أخرى ناصعة
البياض وترفع علي الغطاء . . تسويّه . .

قلت لها أنني لا أشعر بالبرد . .

لم تجب . . ظلت تنظر إلي بأسى ، كأنها لا تسمعني .

فقط ، حين التقت عيناها بوجه الصورة المتألق صحّة وشباباً
وحيوية ، على طاولة السرير ، يرمقها لا مبالياً ، أجهشت بالبكاء ،
وجرت خارج الغرفة .

٥

توالى الطرق على الباب .

وانفتح البيت للقادمين ولمطلع نهار غائم ، ماطر ، كئيب . . ومع ذلك ، كان ضوء رحب شاسع ، شفيف يدخل الغرفة . . يعبر الجدران . . يعبر الزمان . . يعبرني غمرتني راحة مذهلة ، لا توصف . . وابتسم وجهي في الصورة للسكينة القادمة . . وناداهم ، قبل الرحيل . . ولكنهم تركوني ، وتركوا الصورة وحدها ، تلتصق فيها العينان اللوزيتان الكحيلتان ببهجة النجاح ، يوم التقطت الصورة ، ساعة الإعلان عن فوزي بالجائزة الأولى .

رفرف الفستان الربيعي بألوانه المشرقة وارتفع الجيد الأبيض الطويل رافعا الرأس إلى سماوات نشوة الروح ، وارتفع التصفيق ، وقتها ، كما أنا الآن ، أحسستني خفيفة ، شفافة ، كهبة نسيم . التقطت اللحظة التلفزات والإذاعات وعدسات المصورين وأصبحت الصورة تسكن قرب فراشي ، تؤرخ ليوم التويج ، في أرقى مسارح

تونس ، شاهدة على صدق ديني . أليست الكلمات هي الخلاقة
الباقية ؟ ! هكذا كنت أو من يومها .

اخترت للصورة إطارا فضيا على شكل كتاب مفتوح وأمسكت
اللحظة الهاربة .

... . أكانت تلك البداية ؟ . . أم كانت مجرد صفحة من أحد
فصول رواية لم تكتمل ؟ . . رواية ركضت فيها خارج الشرع
والقانون !

عاد باب الغرفة يفتح . . دخلوا . . أحاطوا بي . . عادت
سناء ترفع عن وجهي الغطاء . . تدعوني لأنهمض . . تمسك يدي
المصفرة بين يديها الصغيرتين وتبكي ناشجة . قلت لها : —
حبيبتي ! . . صغيرتي ! . . لا تجزعي ! . . أنا هنا . . ! . . دوما معك !
واحتضنتها . . ظلت كما هي ، خافضة الرأس ، باكية ، دون أن
تجيب ، كأنها لم تشعر بضمتي .

وبينما كانوا يتحلقون حولي واجمين ، ظلت الصورة
وحدها دوما تبتسم ، وألق الروح الجذلى في العينين المتحديتين دوما
يضيء .

وكهبة نسيم، شاهدتني أنسحب من الإطار.. أخرج من
الصورة.. في غمرة اضطرابهم، مع ضجة الأمطار، وهدير
البحر، وشبه ظلمة البيت، لم يلمحني
أحد.. لم يلمحني
أحد!

انقبض القلب . . اهتزت النوافذ بوقع الريح والمطر . . توقعت كل شيء ، إلا أن يكون الخبر قادما من مرفأ الذكري وبالذات من هاتف بيتك . . وليصعقني صوت الرجل في سماعة الهاتف :
— . . لقد تركت رسالة باسمك ! . . وأوصت بدعوتك !

توقعت كل شيء في هذا الفجر الشتوي العاصف إلا أن
أدعى إليك أنت ، يا نجمتي التونسية الرائعة !
يا نجمة قرطاج التي أعادت أصابعي المقطوعة إلي ، وأذكت روائح
عبقة قديمة ، خلت الزمان اغتالها منذ نفيت !
فليكن !

ليك يا عاشقة الروح
الشهية!

الكلمات!

«لقد اخترتك بطلا لروايتي!

سأعيد لك أصابعك المقطوعة على شواطئي!

سأطفئ نيران السجائر المشتعلة في صدرك وأبدد الدخان الخانق

أنفاسك وأكسر قناني النبيذ الحارق بكبك!

سأغير إبرة بوصلة تقودك دوماً إلى جسدي، تعتلي نظراتك رباه،

تبحر فيه بغواية كلما جمعتنا صدفة.

سأكتب بأصابعك روايتي القادمة».

حين قرأت هذه الفقرة من نصّ لك في مجلة «فنون»، كيف

لم أدرك أنها رسالتك المقنّعة إليّ، وأن الخيال سيتحول نبوءة

تقودني الآن إلى مدينتك؟

كنت أتصور أنه لعبك الجميل المدهش بالكلمات هو

الذي يركض بقلمك على مساحات البياض، وأنا أذكر قولك

ذات لقاء: «من غيرنا يهدم العالم الموبوء، ويعيد البناء على

هواه، ليشارك الله لذة الخلق؟

من غيرنا يعرف تلك اللحظات المؤلمة الصاعقة لذة؟!

لنواصل إذن يا شاعري، مهما كان الدمار شاملاً!

الذي رمانني إليك ، وإلى المرفأ الذي فتح المعابر الجديدة لسلاح
أفتك من يدى .

على عجل ، لبست معطفي الجلدي الأسود وصغير حاد
يثقب أذني ، يمزق صمت الفجر الراحل . أخذت مفاتيح السيارة
ونزلت راکضاً الدرج .
كأبة فادحة تغمر الشوارع الخالية . وهطل المطر المتواصل ينذر
بالطوفان .

أدرت المفتاح لتشغيل السيارة. تجمد محركها معلنا العصيان. ضغطت على دواسرة البنزين محاولا مرات. أخيرا اشتغل المحرك، وانطلقت السيارة تحت وابل الأمطار.

وأنت معي ، كانت نسمة فجرية منعشة تهب من فجاج
الغاب ، ولكنها دوما تتسرب من يدي . .
أقبل فتمضيـــــــــــــــن ،
وأهمّ بك ، فتدبريــــــــــن ،
وأنحني لألثم أصابع يدك الرشيقة الناعمة ، فيجمّع عنبر زيتون
خاتمك الفضي العتيق كل أحزان الأرض في وجهي ويرميني من
جديد إلى غربتي .

ومع ذلك ، يظل نداء براق غامض في عينيك الواسعتين الكحيلتين
يناديني ، في الصمت والضجيج ، في القرب والبعد .
وها هو يأتي ، رهيباً نداؤك الأخير ، عبر هاتف مفاجئ
وصوت مكلوم . فأني سر في مدينة الذكرى تخفين؟

هتف خليل :

— دجلة؟! .. أهلين حبيتي ! كيف الحال؟

ارتفع رأسك واستدردت مولية ظهرك للكتب على الرفوف .
نضارة الصبا الدائم وحرارة الأنوثة المتوقدة أربكتني وصوتك
الناعم يرد السلام .

كنا أمام جناح السندباد ، ذاك الصباح الربيعي ، حين
التقينا في معرض الكتاب . تهلل وجه خليل بابتسامة عريضة هو
يشير إليك ، لأراك ، لأول مرة ، تقفين بقدك الأهيف الرشيق ،
وشعرك الأسود الأهوج الطويل ، تتصفحين كتابا دعاك .
التفت خليل إلي ، قائلاً :

— أقدم لك صديقي الشاعر الفلسطيني غسان سلمان!
و أضاف معرفاً :

— هذه دجلة! .. الروائية التونسية . . !

مددت يدي إليك مسلماً ، وتلك النظرة البراقة الأسرة من عينيك
الخوراوين تمسك بي .

حين سحبت يدك ، شاهدت ، فجأة ، ذاك الخاتم الفضي
العتيق في شكل غصن زيتون يلتف حول إصبعك ، بأوراقه الفضية
الصغيرة وحببات زيتونه من العنبر الأصيل . شع الخاتم تحت
الضوء . . يا هدية السماء ! يا إله الكون !

كيف تحل أُمي بغتة بمعرض الكتاب ؟ تبزغ كشمس فجرية بهية ،
عائدة بنحاتها الوحيد ، تمد لي يدك ؟ ! ذاك الخاتم ! تهديه السماء لي
من جديد ليأتي عرش بلقيس باعثا دهشتي ، فاتحاً سبيل إيماني
بك !

. . خطرت إسورة حببية في إحدى الروايات التي قرأت ، ذكرى
لإسورة أم العاشق الماضية .

ما كنت أتوقع أن حببية أخرى ستشرق بحلي الذاكرة ، لا في رواية
يختلقها خيال كاتب رومنسي ، حالم ، بل قبالتني ، على أرض
ملجئي .

تسمرت مكاني ، وقد تعلق نظري بك .

صرخ خليل بي : — ما بك ؟ . . هل سحرك الجمال التونسي ؟ أم
أصابتك لوثة الشعر ؟ . .

طويت صمتي على دهشتي ، وضحكنا معا .

تلك اللحظة ، حدثت أن لقاءنا لن يكون عابرا فقد اخترقت في لحظة صاعقة حياتي وذاكرتي .

تشبثت باللحظة قائلا :

— لنسترح في المشرب قليلا ، ولنحتس قهوة معا!
ولكنك اعتذرت شاكرا ، وابتعدت بشعرك الطويل الصاخب
الإغراء لتدفعي ثمن ما اشتريت من كتب . . وبيننا ، انتشرت رائحة
زهر الأرنج . . أكان عطرك؟ أم عطر الأراضي البعيدة في خاتمك
وقد أشعلت الذاكرة وأعدتني الطفل الذي وئدت طفولته يوما في
بئر على الطريق؟!

ذاك اليوم البعيد من شهر أيار، كانت الأرض باذخة الخضرة،
ممتدة الإشراق حتى كروم الزيتون، يحرسها جبل الكرمل، شامخاً في
صفو سماء الربيع. كان الخروف سارحاً مع الكلاء، والفراخ
الشقراء الطليقة متراكضة خلف أمها القائقة، تتطاير بين أرجلنا
الصغيرة، قبل أن تدعونا لعبة الغميضة لتسلق شجرة البرتقال أو
الاختباء في شجرة الخروب العملاقة على حافة الطريق.

علا صوت أُمي منادياً، وهي تقف أمام سور بيتنا الذي
طلاه أبي حديثاً بإشراقه البياض.
— غسان!.. يا غسان!

خطت نحوي، وانحنى وجهها المشرق علي بابتسامة حانية، ويدها
تمتد برغيف مدور ساخن خارج توا من التنور.
قضمت الخبز الساخن العبق بشهية وعدت راکضاً داعياً أترابي إلى
مواصلة اللعب.

عادت تنادينني. ركضت بي سنواتي الست من جديد
إليها. هب في وجهي نسيم بضوع أغصان الأرنج والبرتقال
المزهرة، المتكئة على سور بيتنا.

— غسان! لا تبتعد عن الدار! . . غسان! لا تنس الحروف! أنا
ذاهبة إلى جدتك! . . سأعود قبل الغروب!
وكررت : — أعود قبل الغروب!

ولكن، حل المغرب، ولم تعد أُمي! . . أبدا! لم تعد!
ورميت أنا بعيدا خارج الحدود. ولم أف بوعدي لها بالبقاء. وظل
جبل الكرمل جاثما، مثقلا بحزن الأرض يرقب ما جرى في
أيار. فقد جاؤوا، عصابات غربية هجمت بسرعة مرعبة. . جراد
أسود انتشر في الأفق. . على الطريق أخذوا يقفزون من شاحنة
قدمت هادرة. . انتشروا مصويين البنادق إلى الفلاحين العائدين إلى
بيوتهم، صارخين، «كاديا! . . كاديا! . .»

لم أعرف إلا فيما بعد أن كاديا لا تعني «إلى الأمام» اللينينية، بل
تعني : اقتلوا الفلسطينيين وشردوهم!
لا ندري كيف تفجرت جهنم. . لعل الرصاص وتوالى الطلق
الناري من كل الجهات. . حين انقشع الدخان، رأينا رجالا
ساقطين على التراب، يرجفون في دمهم.
أخذنا نعدو، مذعورين باتجاه بيوتنا.

من بين أشجال التلة ، لمحت أبي قادمًا يعدو على
حصانه . . ركضت إليه . . امتدت ذراعه إلي ترفعني إلى صهوة
الحصان . . سأل مسرعا : — أين أمك ؟ وأخوك ؟
قبل أن أجيب ، انهمر الرصاص حولنا . . وجدتني على الأرض ،
أبي يشدني بقوة إليه ، والحصان ملقى ينتفض على التراب ، الدم
يسيل من ظهره ومن عنقه ، وجدول الدم القاني يركض ملونا
أصابعي .

وسرعان ما أحاط بنا الغرباء المسلحون ، مصوبين إلينا
فوهات البنادق ، آمرين بالرحيل . تجهّم وجه أبي المحتقن . . صرخ
في وجوههم ، فكيف يرحل عن أرضه وبيته ، وأمي هنا ، وأخي
وعائلتي ؟! . . بعنف حاقد ضربوه بأعقاب البنادق ، أسقطوه
أرضا . . ارتميت أدافع عنه ، شدني أحدهم من شعر رأسي ،
أوقفني وصفعني بقوة صفعتين ، وضع فوهة البندقية المحشوة
بالرصاص في جيبني والتفت إلى أبي ضاحكا بشماتة وسخرية :
— هل نقتله الآن لترحل بمفردك ؟
هب أبي صارخا فاتحا ذراعيه درعا لي :

....................

! ! ! ! !.

كانت كوفيته قد سقطت على الأرض ، ووجهه تعفر
بالتراب ، وعيناه اشتعلتا بنار الغضب .

ابتلعت السماء صراخنا وعويلنا وغامت ، ونحن نقاد —
 رغما عنا — رافعي الأيدي — إلى الطريق خارج حيفا .

مشيت ملتصقا بأبي وخط ساخن من الدم يسيل من أنفي على شفتي ، ويتقاطر على قميصي ، تاركا قطرات منه على الأرض ترسم طريقى إلى المجهول .

ونحن نُرْحَلُ ونبتعد، في شاحنة عسكرية مع آخرين
وفوهات البنادق حولنا، والطريق تعلو بنا بين التلال، كانت
حيفا، من بعيد، ترتجف، أمام موج البحر الصاخب : جموع
تضطرب على الشاطئ، عساكر ومراكب تلوح بالرحيل، وصوت
محذّر ناعق في مكبر الصوت، ورصاص متفرق يتردد صدها في
الآفاق.

دارت الشاحنة بنا خلف التلال .

وغابت المدينة . . فجأة ، خلف أجمة من الأشجار ، حذو بئر
مهجورة ، أبصرنا جنودا يلقون أجساد شيوخ مقتولين ونساء
مبقورات وأجسام أطفال فصلت عنها الرؤوس في البئر المفتوحة
لتكون مقرها الأخير .

هناك كمّ الرعب فمي ، فقد شاهدت طفولتي تلقى في تلك البئر
وتختفي إلى الأبد .

ذاك المساء البعيد ، على امتداد الطريق كان الشجر ينحني
ويذبل ويزداد قتامة والجبل يطأطئ رأسه ويغرق في لجج بحر
الغروب والظلمة القائمة تلف حيفا الراحلة بوشاح الحداد الحزين .

وظل وجه أمي هناك ، بعيدا ، لا يغيب بنور بسمته . . ،
ويدها ترتفع إليّ ملوحة ونجوم تتقاذف بين أصابع عرشٍ بخنصرها
خاتم غصن الزيتون .

تطير الريح بي ، وحيدا في السيارة الهادرة ، وينشج المطر
 بجدة ناعيا سقوط كل النجوم التي أهديتني .
 ومع ذلك ، كنت هنا ، بجانب ، بكل بهجتك وحيويتك .
 ألق نجومك مازالت بقاياها على جلد مقعدك .

هنا ، كنت ! قربي ، بعد اختفاء شهور ، زاد جنوني بك . والسيارة
 تطير بنا من قرطاج ، في طريق المرسى ، إلى العاصمة التونسية وقد
 قبلت دعوتي لإيصالك إلى محطة الشمال . . جسدك الناري يشع
 بمباهجه ويضوع بعطره اللذيذ . وصدى نقاشك الجريء في الندوة
 التي تركناها يزيدني إعجابا بك . كنت أنعطف مسرعا طائرا في
 الشوارع المشمسة ، تاركا «بيت الحكمة» التي جمعتنا ، لتفقدني أنت
 حكمتي ، فإذا أنا أطيّر بك . . معك . . يلتقي جسدانا أحيانا في
 توقف مفاجئ وانعطافات سريعة ، فأشتاقك أكثر ، وأتشبث أكثر
 بلحظات الوحدة المضيئة النادرة معك . . رغبة حارقة وخشية
 غامضة طارئة بالفقدان تتداخلان .

فجأة ، وجدتني أخفف سرعتي المجنونة وأميل بالسيارة
 إلى الرصيف لأضغط على الكابح ، وأستدير إليك ، أتملى وجهك

الشهي المرفوع في كبرياء أصيل . . أكنت أحس أن خسارتي قريبة
فيك؟

. . دنوت منك ، أملأ أنفاسي بشذاك الناعم ، أتشهى لثم
الوجه الشهي المكابر وتقبيل الجفنين الذابلين على عيون ليلك
الآسر ، واعتصار تينك الشفتين الطريتين بلا طلاء ، غير لمعة
اللمى .

ولكنك نفرت كغزال بري ورفعت رأس مثاليك عاليا ، بعيدا عن
أنفاسي الملتهبة . لم تدركي أن غرور المثالية سينكسر يوما على أديم
الواقع الصخري وستدفن شظاياها البلورية في التراب والطين .
ارتفع خاتم غصن الزيتون حاجزا بيننا في يدك وسريعا ما انطفأ
بريقه ويدك تسقط على ركبتك .

«أنا لا أحب الخيانات» ، قلت ، وأنا أحاول أن أضمك إلي .
التمعت عيناك بنظرة تفيض عتابا وحرنا غامضا سرعان ما تفرق
في دمعين أمسكهما كبرياء جميل ، ولويت عنقك المرمري الطويل ،
ملتفتة إلى أشجار قرطاج الباسقة ، على امتداد الطريق .

معتذرا لك ، أخذت ، ملاطفا ، بين كفي ، يدك . . أمسكت
أصابعي المشتاقة أصابعك الناعمة . قلت مداعبا :

— من أين لك حلي أُمي يا تونسيتي الرائعة ؟

وقبلت الخاتم في إصبعك .

لم أتساءل يومها ، لم التمع الدمع في عينيك ؟ يا نجمتي
العصية المكابرة ! . . فقد ألهاني الجسد الظمآن المتوتر عن سؤال
دمعتك .

حين وصلنا المحطة ، نزلت عجلي مودعة ، ليأخذك
القطار إلى مدينة الميناء . بقيت وحيدا في السيارة أتابع طيفك حتى
الغياب .

ولكن الآن ، والفجر الماطر يأخذني إلى دنيائك ، أتساءل :
أي سر كانت تلك الدمعة المكابرة ، تخفيه ؟

اشتد هطل الأمطار . . لم تعد تنفع ماسحة الزجاج ،
والطريق إلى أقصى الشمال تلتوي وتعلو وتمتد تحت غزارة الأمطار
الهادرة والغيوم الواطنة الراححة على قلب الأرض .
و مع ذلك ، أضغط أكثر على دواسة البنزين ، أطيّر مع الريح
والمطر .

وهنا أنا آتيك !

أعود إلى البحر الذي رمانى إليك . . إلى صفق الموج للقلب! . . إلى
زعيق الباخرة القبرصية الراحلة بنا بعيدا ،
بعيدا ،

من بيروت إلى تونس ، لتصبح الأرض . . التراب ، بكل الحيوانات
التي يخزنها ، بكل بذور الشهوة والشوق للحياة المتفجرة خصبا في
قلب الربيع ، عصفاً مأكولاً!

والآن ، ما الذي تخبئ لي ؟

ما الذي تخبئ في أوراقك الموعودة لعاشقك الملتاع ، بعد أن
أغلقت أبوابك في وجهه ، لتفتحها الآن للقاء المستحيل .

بدت المدينة من بعيد، وقد خفت المطر، ملتحفة ببياض
مبلل صامت حزين .

وأطـل البحر! . . البحر
المقيـت . . الحبيب!

حياتي . . وموتي . . وذاكرتي!
البحر الذي رمانى يوما مشعثا مقهورا إلى ساحلك!

ها هو يبدو، مربدا، صاخبا، بلا سفن ولا بواخر، غير أسرع
الريح وتكسرات الموج وذاكرة الغربة والنهايات .

وها أنت، تعيديني هذا الصباح إلى مرفئي القرطاجني، إلى المدينة
التي ضمدت جراحى ذات تهجير، ولوحت لي بالأأيادي
والأعلام، لتستقبلني الآن، شوارعها شبه الخالية، مبللة، كثيبة،
صامتة .

ما كنت أدري أنني إلى هنا سأعود، لا لاجئا يتوقف في
مرفأ الذكرى ويريح أقدامه التي أنهكها الترحال والغربة وقطعت
أصابعها الحروب، بل عاشقا متلهفا، عائدا ليراك — أنت التي
فرشت لي على هذا المرفأ سجادة المسدّى بخيوط عليسة الهاربة من

صور، لأصلي لك، ولأستلم على أراضيك، بين عتيق صخور
مرفئك، رسالتك الأخيرة لي قبل الرحيل .

أمام بيتك، صمت المحرك وتعالى وجيب القلب، وأنا
أشاهد باب حديقتك المفتوح على دموع الياسمين العرشة على
السور، مشرعا لهدير البحر ونواح الريح وللقاديين .

تقدمت وئيد الخطى، على الممشى الحجري المبتل، وغصة
شائكة تقف في الحلق . أمام الباب المفتوح، في الردهة الواسعة،
جلس الرجال واجمين . وقف لي رجل محمر العينين، دعاني
للدخول . . بينما علا ترتيل القرآن .

وشاهدتك، من الباب المفتوح، في الغرفة الواسعة المقابلة، بين
النساء . تسمرت في مكاني . . ألم أدمن بعد النهايات ؟!
. . أشار لي أحدهم بالجلوس .

كنت هناك، على السرير، مسربة بالبياض، بياض
ناصر مخرم الحواف، ووجهك المقابل في صورة تعتلي المكتبة، بفتنة
النظرة المتألقة والابتسامة المغربية، والصادر الناهد الحلبي في
استدارة الفستان، يزيديني بؤسا ومرارة فاجعة .

من بلور النافذة العريضة الممتدة على طول الجدار المقابل ،
عاد البحر المربد الصاخب يرميني إلى مرفأٍ جمعنا يوماً غريبين ،
يمضي كل منهما إلى قدره ، ويعيدنا الآن ، من جديد ، حبيبين ، في
بيتك ، يكتب موجه الصاخب لقاءهما المستحيل .
... أم ترى ، كلمات رسالتك التي أعلن عنها هاتف
الصباح ، هي التي ستكتب قدر الغرباء ؟

تشظي المرايا

١

نشوة راقصة تطير بين المعابر ، كنت ، مغسولة بشمس الصباح ،
معطرة بشذى الكلمات المصفقة في المطبعة تعلن قرب مجيء
مولودي الجديد .

تركت المطبعة إلى معرض الكتاب بضاحية الكرم بتونس
الشمالية ، اجتزت ساحة الرخام المرمرى الفسيحة ، أمام قبة
المعرض الشاخنة الخضراء المغتسلة بضوء السماء البهي .
هل في الذاكرة ذاك البيت الذي سحرني ذات قراءة :

اخْلَعْ نَعْلَكَ عَنْكَ عِنْدَ الْبَابِ
يَا أَبْتَ وادخل إلي
ملكوت الشعراء
محتفلاً

قد اصطفت لحفل الله أنست
فقل ماذا

وقوفــــــــــــــــك فــــــــــــــــي الأعتــــــــــــــــاب
وجــــــــــــــــلا ؟

مستجيبة ، أمام القبة الخضراء ، خلعت النعال ، ودخلت
الملكوت .

فرسا كنت ، يطير بها الزهو ، من جناح إلى جناح ، في معرض
الكتاب ، متفرجة ، متصفحة ، قارئة ، لامبالية باللقاءات القصيرة
العابرة والدعوات البريئة والماكرة .

ومع ذلك ، لا أدري كيف شد لجام الفرس الطائرة ، أمام
جناح السندباد ، وصوت رجالي يستوقفني قائلاً :

— . . أهلين حبيبتي ! كيف الحال؟

التفت لأفاجأ بالشاعر العراقي " خليل " ، اللاجئ السياسي ،
يبادرني بالسلام قبل أن يقدم لي رفيقه النحيل الفارع :

— صديقي ، الشاعر الفلسطيني ، غسان سلمان .

انشدت الروح لحظة واليد الكبيرة تمتد إلي مصافحة . .

إذا . . هذا هو غسان سلمان !

شد بقوة يدي ، وألق خاطف غريب في وجهه يشع من عينيه
الغائرتين ، كقبس فرح طارئ يطلع من بئر السواد العميق في
عينيه .

وقبل أن أمضي مودعة ، بادرني داعيا «هذه فرصة جيدة
للتعارف وتناول قهوة معا» .

أغرنتني الدعوة ، لحظة ، لترشف قهوة منعشة ساخنة
تعيدني إلى مقعد الاستراحة بعد طول الجولان ، والاستماع إلى
شاعر الأرض السليبية ، الذي سهرت معه ليل ، مأخوذة بكلماته
الأسرة . ولكن الفرس الجاحمة رفعت الرأس شاكرة ، مودعة ،
وخلفت الرجلين واقفين . وطار شعرها المنساب خلفها لتمضي
باحثة تورق المجهول .

توالى ابن عربي والحلاج والمتنبي في محفظتي . وتلاقت
الأندلس وأمريكا وفلسطين ، واصطدمت البحار بالصحاري في
أكياسى المثقلة بعوالم الغابرين والحاضرين .
أمسى الزحام مرهقا وقد تكاثر رواد بعد الظهر ، ليختفي هدوء
الصباح النسبي ، تاركا الجسد ينوء بأحماله .

تذكرت قاعة المحاضرات المريحة واللقاء القادم مع الشاعر
الجزائري ، لتقدير كتابه المثير الجديد «مدن الموت» المعروض بأحد
الأجنحة . عدت باتجاه المدخل ، بأكياسى ، أصعد الدرج الرخامي
العريض إلى الطابق الأول .

كانت القاعة شبه خالية، والشاعر لم يحل بعد، ونشاط
صباحي المكتظ، بدأ يثقل رأسي تعباً.
ارتحت لهدوء القاعة وشبه خلوها، فالساعة الرابعة، موعد اللقاء
لم تحل بعد. اغتنمت فرصة الانتظار لأريح رأسي على ظهر
مقعدي البطن المريح، وأسدل جفني تحت نظارتي السوداء.
حطت، فجأة، يد على كتفي، وطار خلف أذني بيت
شعر مغازلاً.

انتصبت سريعاً، أعدل جلستي المستسلمة لإغراء غفوة في حضن
المقعد المخملي المريح، وإذا خليل، من جديد، صحبة رفيقه،
يدعوني ويستعد للجلوس.

كان الشاعر قد أقبل على المنصة، وارتفع صوته جارحاً،
وهو يقرأ قصائد من ديوانه الأخير، عن بلد الثورة التي تحول إلى
بلد القتل المباح على الأرصفة. ولكن القصيدة رفرت عالياً، بدم
المدن الجريحة. فكّت الموت عنها وهي ترفعها إلى عالم سحري
أسطوري يتمرد على الواقع ويثور. وردة سوداء باهرة، تحولت
القصيدة، تضيء ليل المدن وترسل أنغام شجن عذب جارح يعلو
صداه في القاعة التي ضجت بالتصفيق.

في نهاية الأمسية ، خرجت خفيفة ، محلقة في أجواء الشعر
العذبة المدهشة ، وقد تلاشى ذاك التعب الذي دخلت به القاعة
ولكن ، بحزن شفيف أكبر ، وجموح أقل ، بعد أن أخذنا الشاعر إلى
خراب المدن ، وانتحار العرب الجماعي ، معلنا ، هذا زمن لا عزاء
فيه لمشرق أو مغرب .

مضينا صامتين إلى الفضاء الطلق خارج المعرض . ونحن
نقترب من البوابة ، بادرني خليل بدعوته ليوصلني بالسيارة إلى
محطتي . هذه المرة ، مرغمة ، قبلت الدعوة ، فالشمس بدأت
تتوارى خلف أشجار ضاحية الكرم ، وساعتان كاملتان تنتظراني
للوصول ، ولا وجود لوسيلة نقل سريع .

في المقعد الخلفي ، كان غسان سلمان يغرق صامتا في ظلمة
الليل القادم ، بينما كان خليل يحاصرني بالحديث .
هتف أخيرا مازحا وهو يخفف السرعة :

— لقد وصلنا سريعا إلى المحطة الأرضية ! . . محطتك
سيدتي ! . . ليس لنا حظ معك !

قبل أن أضع قدمي على الرصيف ، جاءني من خلف صوت
غسان ، وكأنه صدى ليل الغابات يدعوني ، ودس في كفي بطاقة
هويته قائلا :
— آمل أن نلتقي قريباً !

أبعدت عنهما كتيبي ، ومهدئة ضجتهما واستياء حسام
قلت مجيبة :

— هاكما كل ما أردتما ! ومع ذلك سنعود لزيارة المعرض يوم
العطلة ، بعد إصلاح السيارة . ندوة هامة ستقام مع كاتيين من
اليابان . هناك أيضا ورشات عديدة للأطفال . . أليس كذلك يا
حسام ؟

. . لم أنتظر الجواب ، وأنا ألمحه يقطب جبينه .
أسرعت خارجة ، تاركة للصغيرين القصص الصغيرة الملونة ،
يرتعان في حداثتها ويقطفان لوز الكلمات .
دخلت مسرعة المطبخ وأشعلت النار لتسخين العشاء على مهل ،
كعادتي كلما تأخرت ، قبل أن أغير ملابسي وأدخل الحمام .
رميت حذائي ذي الكعب العالي بعيدا .
حافية أمام المرأة وقفت ، أفتح سلسلة فستاني .
. . أخيرا انتهى اليوم الحافل المنهك بين المعرض والمطبعة
بالعاصمة .

تركت الفستان يسقط عند قدمي ، التمتع في المرأة العرق يبلل أعلى
ظهري ، يلصق بي قميصي القطني الداخلي . سريعا ، تخلصت
منه .

بدا صدري المشدود، في بياضه المورد، يكاد يفيض من الرافعة الضاغطة. ألمني الضغط حول صدري، هذا الذي يهيج حسام. يشتهيهِ دوما. يمد إليه يدا نارية، متوترة الأصابع، مغازلة تقتحم جمالته و تدعوه، فأغلق أزراره، متعللة، «الجو بارد!.. ستصيبني نزلة، شدني إلى دفئك دون عراء!»

فيغضب حسام، ويوليني ظهره، ثم يعود، متحديا غرابتي، عنيفا، قاسيا، ويشعل كل المواقد الممكنة ليحرقنا الدفء.

أمام المرأة، فتحت الرافعة، أخيرا تنفست ملء رئتي، وقد زال الضغط وعاد الهواء ينعش كامل الجسد. أُلقيت الرافعة المنداة بالعرق، وتحت النور المنهمر من النجفة، رفرفت الحلمتان الموردتان، وانطلق نهدي متحررين، بضين، شاخين، بينما ظل تحتها خط بنفسجي داكن امتد حولي من قسوة الضغط، طيلة يومي الحافل بالعاصمة.

في غرفة النوم، تركت ملابسي تساقط قطعة، قطعة، أمام المرأة. كان صوت إسمهان، القادم من التلفاز، يترقرق طربا متغنيا بـ «ليالي فيانا»، وصوت الماء الفوار في الحمام يستعجلني ليغمر جسدي، وضوء النجفة المتلاثلة ينهمر على صدري، فيبدو نهدي في اكتمال الاستدارة، متألقي البياض، بضين، شاخين،

رغم الخط البنفسجي الذي امتد تحتها كاشفا طول الضغط وتعب النهار .

ارتفع صوتي مترنما مع الصوت الشادي ، منتشيا بإكسير الفن الذي ترشفته كامل النهار ، « . . ما احلى ليالي فيينا ! وصوت القيثارة والوتر ! » ، يترنم صوتي مع صوت إسمهان الرقراق . وذراعايا العاريتان ترتفعان لارتداء قميصي القطني الأسود ، على نهدي المتحررين .

فجأة اختلت في وجهي المرأة . . ارتعشت وتغضنت ، في نقطة ما .

.. اقتربت . . ابتعدت خطوات . . عدت أتقدم . . حدقت . . لم أكن واهمة !

صحا الخوف ، ويدي تمتد ، تتحسس نتوء كحصاة تحت الحلمة اليسرى الموردة . تسارعت دقات الخوف .

صمت صوت إسمهان . . وفي وقفتي ، نصف عارية ، شاهدت المرأة تتسع ، وتمتد . . وتتشظى . . تضعني في شبكة من خيوط عنكبوت . .

كل شيء بدا في ذروة الصفو . . هسيس مطر . . شقشقة
عصفور . . وبهرة فجر قادم يتسلل من بين ضلوع النافذة . . وأنا في
ذروة الصحو والترقب . عيناى معلقتان بالسقف في انتظار طلوع
شمس تطفئ ظلمة القلق التي انتشرت والجسد، يتعرى، أمس
أمام المرأة.

أخيرا، غادر الجميع البيت : حسام إلى العمل وطفلاى
إلى المدرسة . انفردت أترشف قهوتي وأسرح في ظلالها، حتى
الشمالة، ثم غيرت ملابسى وخرجت متجهة إلى عيادة الحكيم .
واجهنى الطقس الغائم البارد فى الخارج . ووقفت الأجوبة
ضدى هذا الصباح .

اعتذر طبيب العائلة عن الجواب والتشخيص الصحيح بغير صور
كاشفة . أطرمنى بكياسة مركز التصوير المكتظ بالمنتظرين والممرضة
تسرع قائلة : «أسفة سيدتى ! يمكنك أخذ موعد بعد أسبوع !»
عدت أنزل الطوابق الثلاثة بخييتى .

في الشارع ، كانت السماء رصاصية والشمس غائمة وضباب ثقيل
يخيم على المدينة . تمشيت على الطرقات المبللة ، تسكعت على
الأرصفة الباردة ، تهيم بي الريح بلا غاية واضحة .

فجأة ، تألق وجه سلمى ، في الضباب الكئيب .

لا أدري ، لِمَ ذكرتها وقتها . . شع وجهها ، باشا ، منيرا في
الضباب ، داعيا دوما ، كما كان ، كلما ضاقت النفس والتبس
القادم .

عدت أنعطف مع الطريق ، لأمضي إلى مرتع طفولة ماضية ، وبيت
اختطف في الأمومة قبل الأوان ، بعد رحيل والدنا . . هناك ، أجد
سلمى تستقبلني ، ترعى ذاكرة الغائبين ، تضمد جراح العائدين ،
تفرش لهم بساط الطمأنينة والسلام ، ليركوها بعدها ، وحيدة ،
في انتظار من منحته أجمل سنين العمر : ابن عمينا ورفيق صبانا
عماد .

يتيما ، نشأ بيننا ، بعد أن قتل والداه أيام حرب الجلاء ، في
المظاهرة التي خرج فيها أبناء المدينة في ١٩ جويلية ١٩٦١ ، منادين
بالجلاء عن مدينة تشبثت بها فرنسا ، رغم استقلال البلاد . حملة
أبي إلى بيتنا ولم يبلغ العام ، ليجمع حليب أمي بيننا وليصبح ابن
عمنا أخا يملأ البيت حيوية وعنفوانا .

عماد، الفتى الحيوي المناضل في الاتحاد العام لطلبة تونس . لم يبلغ العشرين في جانفي الأسود حين انتفض مع الشباب الجامعي ضد الحكم الفردي، لينتهي مطاردا ومحكوما بالسجن — غايا — لتسع سنين . كان ذلك كافيا لتدهور حال أمي المريضة التي أحبت فيه الولد الذي لم تنجب ولتسلم الروح قبل أن تراه .

اختفى عماد، شوقنا المكثوم ! وأمل البيت المهاجر !
بعد شهور طويلة، من الضفة الأخرى، جاءنا صوته يوما، ليعلمنا أنه تسلل إلى الخارج عبر الجزائر، وأنه الآن بخير .

سنوات مرت، وصقيع الغرب لا يمنحنا منه غير هاتف بين حين وآخر، عدا فرصة وحيدة سافرنا فيها إليه — أنا وسلمى — واجتمعنا أياما على غير أرضنا، سرقنا فيها فرحة اللقاء وجددنا الأمل، متحدين قهر الحكام وأحكام السلطات المستبدة .

كان عماد — وقتها — يشتعل حماسة وتحديا، و كان يقسم أنه سيثأر لأصدقائه المعتقلين والشهداء . بيننا في لحظة ما شاهدت بريقا هائما في عينيه، وطيفا يمر . . طيف رفيقه الدائم، أمير، ابن المدينة الذي توفي تحت التعذيب — دون أن تعلم عائلته مصيره — انهارت أخته شرود بعد اختفائه الغامض . تصدرت أخبارها الصحف بعد قتلها طفلها الوحيد، لترمى بعدها في مستشفى

الرازي . وأصبحت قصتها مع أمير ، رواية تتخاطفها الأيدي وتدمع لها العيون (بعد أن نشرتها دار نشر سورية) وتمر بين الأيدي سرا ، خوفا من الرقيب . . بين كتب عماد ، وجدنا رواية «دروب الفرار» تذكر بقصة أمير ، وبالنزيف الذي عاشته مدينة هيبو . .

تركنا عماد بين كتبه ورفاقه من اللاجئين السياسيين ، نور الدين خذر ، محمد الصالح فليس . . ، يعمل معهم لإصدار صحيفتهم المعارضة «آفاق» ، يشتغل بالليل ، ويواصل دراسته بالنها .

وعدنا إلى تونس بعد أسبوع . رجعت سلمى إلى بيتنا ، وقد أصبحت وحيدة فيه . . أصبحت تعني أكثر بغرفة عماد . تفتحها للشمس والهواء . تمسح عن أثاثه وكتبه الغبار . تصقل بلور النافذة . . ومازالت ، وقد شارفت الأربعين ، قديسة عذراء تنتظر انقضاء السنين وعودة الحبيب الغائب : الطالب المحكوم بتسع سنين .

بدأ رذاذ خفيف يتساقط ، حين توقفت أمام الباب . انفرج قليلا وأطلت سلمى . فتحته عريضا وهي تراني . وفتحت ذراعيها

تغمرنني بالترحيب والشوق والقبل ، وعيناها الواسعتان في وجهها

المريح ، تفيضان بحنان أمومي . بادرtnي بالتهليل والسؤال :

— أهلا! أهلا! ما كل هذا الغياب؟ . . أين كنت؟

واجهتني نظرتها الثاقبة العميقة . أسرعت سائلة :

— كيف حالك أنت؟ وعدت أقبل الوجنتين الناعمتين ، وأسأل

من جديد :

— ألا تعملين اليوم؟

— هل نسيت؟ . . اليوم أربعاء ، رياض الأطفال في عطلة!

— أنا أيضا لا عمل لي هذا الصباح وغذائي جاهز! و . .

تأملتني لحظة . قاطعتني وهي تلمح توترتي :

— ما بك اليوم؟ . . هل أنت بخير؟

— . . لا . . لا شيء! . . لا شيء . . ياه! . . رباه! مسلسل «ذهب

مع الريح» . . ارفعي صوت التلفاز! لم أشاهد هذه الحلقة!

— ولكنك تعرفين القصة! التهمتها وأنت هنا ، إلى جانبي ، ولم

تركيني أنام وضوء المصباح يشتعل حتى الفجر!

. . أتذكرين؟

— أذكر يا سلمى! فالرواية لا تنسى!

أضافت سلمى ونظرتها ترق وتلتمع ومسحة حزن تعبر وجهها :

— أخذها منك عماد، وغرق فيها أياما، قبل أن . . !

لمحتها ترمقني بحنان، والماضي يعود يجمعنا من جديد. مضى بعدها نظرها إلى الشاشة، ومستجيبة، ضغط إصبعها على الموجه وارتفع صوت الموسيقى الهادئة خلف البطلة الراكضة في الريح. عادت نظرتنا، معا، إلى الشاشة، تتابع «سكارلات» بطلة رواية «مارغريت ميتشال» معها، عدنا، سلمى تهيم مع أشعة الذاكرة، وأنا أطرّد مخاوف ليلتي الماضية، أمسك بأشعة النسيان.

حين رجعت يومها إلى البيت، انطلقت أكتب. أكتب بشهية واندفاع وقد نبعت داخلي طاقة غريبة جارفة للكتابة، ويومها، قررت أخذ موعد مع حكيم مختص شهير بالعاصمة : الدكتور سليم حسان.

في المساء، وقد انغلق علينا الباب، وغمرنا السكون والظلمة، لذت بصدر حسام، أدفن في أدغاله مخاوفي وذاكرتي. ولكن، في لحظة ما في عمق الليل، اشتعلت نجمة، وتناثر الشرر فارضا صحوي. . تركت الصدر الحاضن وتخلصت من الذراعين الداعيتين، فقد جاءت الدعوة. دعوة باهرة حارقة اقتحمت

العمة، وشهوة خاصة، جارفة أمسكت بأجنحة الروح . لقد استيقظت في عمق الليل شهرزاد، وحلم غامض فاجع يحرق اللاوعي المعتم، ليتأجج النبض وينهمر الضوء، ويرتجف الجسد والروح بالشهوة الحارقة! شهوة الكتابة!

ولكن يد حسام عادت إلي، ساخنة مغازلة تبحث عن مواطن الشهوات . . تلملت شهرزاد وقد استيقظت بيننا الحكاية . . دفعتها يدها وامتدنا تطوقاني وتسرحان في حدائقي . . انكمش الجسد المرتبك . . وتخلص بهدوء من الذراعين المشعرتين . . أوليت ظهري لشهوته، واستسلمت لشهوتي الموجعة، وتكورت أحضن وليدي الراعف في دمه . . كان يضرب بقدميه ويديه، معلقا بالمشامة . . رغما عني، مأخوذة بمخاضي، نهضت . تركت حسام في سريريه، ومضيت إلى سرير آخر، مكتظة الروح . . مضيت إلى سرير الكلمات . . كان بياض الورق الضامئ ينتظرني تحت مصباح السهر . . على شهوتنا الحارقة الموجعة، أوصدت الباب .

ومَضَتْ من جديد صور الحلم الفاجع الذي أيقظني .
حدّق في الطفل الذي أطل من شاشة التلفاز هذا المساء، في جباليا . . بعينيه المغرورقتين دموعا، أمام بيته الذي هدته جرافات

الاحتلال الإسرائيلي . على الخراب ، كان يقف برجل واحدة .
خرج من الشاشة . رفع رأسه إلي ، وأشار بحزن ذابح إلى بيته
المهدم ، وسط أشجار الزيتون . كانت جرافة عملاقة تغرس أنيابها
في الأرض . تفرس الأشجار ، بعد أن هدت السور وخربت
الدار . ارتفعت أنياب الجرافة ، وسقطت من جديد على عنق
شجرة برتقال . . هي شجرتي المزروعة أمام مكتبي !
مرتعبة ، فوجئت بأني أعرف الطفل الواقف أمام
الخراب . . إنه أخي عماد ! . بعدها تغيرت الملامح . . تغير الوجه
.. وإذا هو ولدي علي !

أفقت ، مفجوعة . . هدير الجرافة يدوي في أذني ، وهدير
الروح يكاد يوقظ الدار ، والدمعة البراقة في عيني طفلي تشعل
العتمة .

تلك الطاقة الهائلة التي أعرف ، عادت ، من اللاوعي
المحتقن الذي فجر حلمي . . هبت من أكوام الخراب الذي تصفعنا
به الصحف والفضائيات في مشرقنا العربي ، . . تحول الجسد المنهدم
إلى عاصفة . . إلى زلزال يقلب الأرض ، باعثا الحيات التي دفنتها
جرافات مدن الشرق الحزين .

في المكتب الذي أوصدت بابه، أضأت المصباح، وجلست أمام بياض الورق.. الجسد خادمي!.. ملكة، رفعت صولجاني!.. اشتعلت ذؤابته.. انفتح الأفق الأزرق الليلي وأصبح الكون بكرا، هوى في يدي تنتظر التشكيل الجديد.. تشكيلا يعلو على عالم الخراب.. وانهمرت بالضوء أصابعي.

لم أشعر كيف دخلت سناء، تجر خفها الصغير، وتفرك عينيها منادية :

— ماما!.. صباح الخير!.. أين قهوة الحليب؟

.. سقط القلم من يدي واختفى الصولجان وغابت شهرزاد الحكاية. عدت أنزل عليها الستار إلى حين، فسناء تنتظر فطور الصباح، وإعداد لمحة المدرسة، وعلي، ينتظر مني إيقاظه قبل موعد الدراسة.

بغته، سمعت باب غرفة النوم ينطبق بقوة، وخرج حسام. زمّ شفتيه أمام تحية الصباح التي بادرت به. أولاني ظهره خارجا من المطبخ، رافضا، بصمته القهوة التي أعدتها له. لم تشفع ساعة رياضته الصباحية خارج البيت، ولا الدش الذي خرج منه معطرا نشيطا، لينسى سخطه علي.

قبل الخروج إلى العمل ، رمقني من عليائه بطرف عينه ،
وهو يطلق إنذاره ، أو نبوءته ، سائلا :

— هـ — هـ .. هـ — أنـت
امرأة؟؟!

أردف في نبرة مريرة السخريّة :

— سأشتري أنوثته من البلاستيك .. تمتعني ! .. أو .. أتخذ لي امرأة
ثانية!

وأطبق الباب في وجهي ، بعنف .

أسرعت ، أفتح الباب وألحق به ، قبل أن يدرك باب
الحديقة ، وصفعة كلماته المهينة ترج الفؤاد .

ارتفعت صرخة الروح في وجهه :

— لماذا لا تدرك أنني كنت متعبة أمس ؟ .. ولم أكن مستعدة!

حلق بي مستغربا ، وصوته يرتفع في تهكم ساخر .

— يالك من مسكينة ! .. ولكنك ، تستطيعين السهر !!!

وأدت صرختي ، أمام اللوم الصارخ ، في حلقة عينيه ،

ويداه تمسكان معصمي ، تنزلان بقوة ، يدي المخذولتين ، إلى

جانبي . داس وريقات الياسمين التي افترشت الممشى ، مع

زهراتها البيضاء المتناثرة ، وغاب سريعا في الطريق خلف الباب

الحديدي الذي انغلق، تاركاً اعتذارى لأيام قادمة، ولقد لا
يكتفي بالكلمات، ولا يغفل عن الجزاء .

أكنت أحس يومها أنني سأكون يوماً، الخصم والحكم،
فأكتب بيدي جزائي، وأكافئ، بنفسى خيانتى؟!!

وقد نسيت كلمات ذاك الفيلسوف التي كتبت يوماً على دفترى
وغفلت عن جوهر المعنى . .

«وحده الجسد القادر على خلق النص وعلى خلق الانتظام» .

مع ذلك، راضيت حسام، فقد كانت حاجتى أكبر إلى
السلام، قبل موعدي القريب مع المجهول .

أخيرا مر الأسبوع ، وحن موعدي مع جسدي ، في شارع مجهول . .

. . بدأ النمل يدب في حلقي . . أخذ يتجمع ويتكاثر ويدب ديبا رتبا متوصلا ، منذ نزولي من سيارة الأجرة .
ابتلعت جيوش النمل القارضة الحلق . رميت قطعة حلوى في فمي .

ساعات تفصلني عن موعدي . . رفعت رأسي إلى الدنيا المليئة حيوية ونشاطا ، ورميتني في طوفان العاصمة ، ليأخذني شارع الحبيب بورقيبة الممتد الفسيح . شرعت أجوب الشوارع العامرة الزاخرة ، أهيرم فوق الأرصفة المزدحمة ، والأنهج الجانبية الهادئة ، أدخل مكاتب وأخرج منها بلا كتاب ، أتوقف أمام دور الثقافة ، أقرأ المعلقات وبرامج الأسبوع ، وأمضي أتفرج على الواجهات العارضة أحدث الأزياء ، ألج مغازات وأقيس فساتين وأتركها ، على أنها غير ملائمة .

توقفت في مقهى ، واحتسيت قهوة ، مع جريدة أخفيت فيها وجهي عن فضول الغرباء والمعارف . . طالعني عناوين عالمنا الفاجعة :

مذابح واغتيالات في الجزائر . . طائرات تقصف المدنيين في
جنين . . عشرات الشهداء . . تواصل الحرب الأهلية في لبنان .
مضيت إلى صفحة فكر وفن أبحث عن أخبار الثقافة .

استوقفني نص لشاعر لبناني بعنوان «رائحة لبنان»
..... رائحة لبنان لم تعد عطرا لثياب حبيبتك

رائحة لبنان هي رائحة المستشفيات والانحطاط
ومطار الهجرة ، رائحة الجحور والخوف ،
رائحة فجور الكراهية . .

طويت الصحيفة ، ألقيتها على المنضدة ، وقد تلوث يداي بهباب
حرائق الأوطان . . أحسست بانقباض طارئ يخنق أنفاسي .
أسرعت إلى دورة المياه ، أغسل يدي ووجهي . .

خرجت إلى الشارع ، يجرفني طوفان البشر معه من جديد ، بلا
غاية ، ولا هدف ، رغم كل الأهداف التي رسمت قبل مجيئي
لاستغلال ساعات الفراغ .

تحت الشجر الوارف المتشابك ، على امتداد الرصيف
الفسيح لشارع الحبيب بورقيبة ، مشيت . شقشقة العصافير تملأ
السماء . بائعو الزهور يرشون معروضاتهم المنتظرة العشاق
والحالمين . باعة الجرائد في أكشاكهم يراقبون أيدي المتفرجين

والمشترين . المارة يحثون الخطى إلى وجهاتهم . السيارات في صفوف طويلة ، على امتداد الشارع ، على جانبي الرصيف المشجر العريض ، تسرع وتتوقف أمام الأضواء . لحظات ، وتعود تنطلق من جديد . العاصمة تغلي . . والأرض — بخيرها وشرها — تدور . . تدور . .

وأنا ، ضد حركة الكون ، أتوقف ، بلا سبب . . أترك الدنيا . أنثني على ذاتي وأستسلم لمقعد مهجور . .

سألني سائق التاكسي عند وصولي : — إلى أين؟

. . ضاع مني الجواب .

— . . إلى أي مكان . . حيث تشاء .

التفت إلي . حملق في لحظة ، مرتابا ، سائلا سلامتي . . همهمت : — وسط العاصمة .

لم يحن موعدي بعد . يتمطى الوقت ، والحركة تزداد سرعة وتوترا . الألوان فاقعة ، تحت الشمس ، تتصادم وتتداخل : الأحمر والأصفر والأخضر والأرجواني . . تمر أمامي مع الوجوه المزوقة والضحكات الطائرة والابتسامات العابرة . يقبل شيخان .

يستريحان على المقعد المحاذي . يتحادثان في هدوء وألفة . وتظل الأجساد النشطة المسرعة تتابع وتتقاطع ، والسيارات تركض وتطير ، وجلبة الشارع لا تنقطع . والحياة يعلو نبضها في كل الكائنات .

ومع هذا ، على المقعد العتيق ، يجلس تمثالي متوحدا ، بلا هدف . شبه دمة تغمر الحياة الصاخبة أمامه ، بضباب ندي ، ضباب فاصل بين عالمين : عالم يمور بصخبه وعنفوانه وألوانه وعالم بلا ألوان ، يغرق في إحساس مرتبك ، يموج بانتظاراته لأجوبة غامضة .

أخيرا حل موعدي .

نزل الستار الأخضر على الباب ، وانغلقت القاعة الصغيرة علي ، وعلى المرايا وآلات التصوير . عارية الصدر ، تقدمت خطوتين أمام آلة ضخمة قبالة الجدار . أوقفني خبير الأشعة ، وبكفه العريضة وأصابه الباردة قبض على نهدي الأيسر المرتجف . حطه على الصفحة المربعة الموصولة بالآلة الكاشفة ، لتسقط فوقه صفحة ثانية . ضغطت صفحتا المعدن البارد تعصرانه ، وغاب سريعا ، ليركني مشنوقة بين أنياب الآلة الباردة .

— الآن، اقطعي الأنفاس!

وفي اختناقي، غزت الأشعة خفايا الحمامة المرتعبة.
أخيرا، خطوات إلى الوراء، مستعيدة أنفاسي، وقد انفتحت
الكلابة الماسكة بي. ولكنه اقترب من جديد ليغير موضع التصوير
من عرضي إلى طولي، وامتدت صفحة باردة واقفة تدعو أخرى،
لتحتجز بينهما الحمامة المرتعبة، فتتوقف الأنفاس وتلتقط الصور
الكاشفة.

حين أولاني ظهره، شاهدت تلك الصورة النصفية حذو
الباب، قربي كانت شبيهة الموناليزا، بوجهها الشاحب الصبوح.
— يمكنك ارتداء ملابسك.

قالت الممرضة المسرعة بالملف خلف الطبيب.
رغما عني، التفت إلى صورة الأبيض والأسود من جديد. . أنثى
في عز الشباب، هادئة الملامح، تهيم نظرتها الكسيرة في أفق بعيد،
مجهول. وأنا أرفع يدي إلى كنزتي المعلقة، لمحت ذراعها المقطوعة،
ونهدها الأيسر ذابلا منكمشا وغضون عنكبوتية كريهة تحاصر
حلمة داكنة مائلة. («إنه السرطان — تعلن الصورة — فاحذريه!»)
جذبت كنزتي بقوة، رميتها في رأسي وأنا أولي الظهر
للمرأة داخل الإطار، وأسرع خارجة إلى الرواق.

ولكن ذبذبات مغناطيسية غامضة ظلت تطاردني ، في إعلان خفي محذر . أسرعت خارج مركز التصوير إلى عيادة الدكتور سليم ليقرأ الصور ويكسر سلاسل مخاوفي .

تمام الرابعة ، انفتح أمامي الباب المبطن بالجلد الأسود . تلقتني ابتسامة وجه أربعيني وسيم ، مشدود العضلات ، مشرب حمرة ، وتطايرت التماعات زرقة حارة من عينين نفاذتين .
— مرحبا سيدتي ! تفضلي !

شدت يده الحازمة يدي مرحة ، وبكياسة رجل نبيل ، أخذ عني معطفي قبل أن يجلس أمامي ليقرأ الصور ويفتح دفترتي الجديد .
تمددت على الطاولة الباردة في غرفة الفحص ، كانت السماء من النافذة المقابلة تنظر ، لا مبالية ، إلى نصفي العاري ، وذراعي الملتفتين على صدري . حين دخل ، لامست ميدعته البيضاء جسمي وهو ينحني علي .

بدا وجهه حياديا ووجهه مكلسا ، رغم وسامته ، وعيناه ، أمستا ليليتين ، رغم البحر المتألق الزرقة الذي شاهدته عند الدخول .

ركز عين ضوء كبيرة على صدري ، وامتدت أنامله
الطويلة البيضاء في حركات دائرية فاحصة ، تتحسس نهديّ ،
إبطيّ ، كتفيّ .

رفعت يده برفق شعري المتهدل ونزلتا بتؤدة تجسان ظهري
المقشعر .

. . كل الأسئلة على لساني احت . وشفثاي انطبقتا على صمت
قاهر منتظر .

عاد مواجهها ، ماسكا إبرة رفيعة ، امتدت كسهم من نار .
اقتربت مني ، لتغرس في التواء المريب .
توثبت ، كقط مرتعب ، للدفاع ، لإطلاق صرخة قبل وصول الإبرة
إلي .

La pauvre ! comme elle est pâle !

المسكينة ! كم هي شاحبة !

أسرعت الأخت المسيحية المساعدة خلف الطبيب ، منبهة .

ربت على خدي ، وابتسامة خاطفة على محياه .

— لا تخافي ! لن تشعري بأي ألم !

وعاد يربت على خدي من جديد .

التمعت الإبرة التي ارتفعت ، في عين الضوء الساطعة . وفي لحظة
خاطفة انغrust وعادت إلى دائرة الضوء تحمل قطرة سائل
غريب .

— اطمئني ! . . إنه مجرد كيس !

هدأ بعض توتري . تنفست الصعداء وهممت بالنهوض .
ولكنهما ظلا أمامي . نظر إلى نصفي الأسفل . . واشتعل الضوء . .
تناثرت أدوات السؤال . . لم ؟ كيف ؟ علام ؟ هل ؟ . . فقدت المعنى
وتلاشت في سرالية المشهد ، وعين الضوء الكاشفة تشعل النار
داخلي ، تبحث عما أخفيه داخل جسد يلهث جامحا لإرضاء
الروح .

بدت السماء حيادية خلف الزجاج ، وأنا أتعلق بها في
عرائي ، مستنجدة .
استدرك الطبيب مهدئا :

— لا بد من إجراء فحص كامل في مثل هذه الحالات !

عاد ينظر في وجهي باسماء .

— لا بأس ! يمكنك ارتداء ملابسك .

وتركاني في غرفة الفحص ، وحيدة ، مع جسدي .

حين خرجت ، وجدت الدكتور سليم خلف المكتب
الأنبوسي الأنيق ، جالسا منكبا على دفتري .

قسوة غامضة كان يوحى بها صمته وهو يخط بسواد حبره وصفتي .
أخيرا ، افتر ثغره عن ابتسامة واثقة .

— يمكنك الاطمئنان ، فلا خطر الآن ! . . حتى التكلس الصغير
الموجود في الصورة ، يمكن مراقبته .

رنت في مسمعي كلمة «الآن» . وامتدت يده بوصفة الدواء .

— هذه أدوية لتعديل الهرمونات . ولكن المطلوب إعداد ملف
كامل للزيارة القادمة . أشعة للرحم . تصوير حراري للشدي ،
تحليل للدم .

ووقف خاتما الزيارة .

— نلتقي بعد ثلاثة شهور .

مُطَمِّنًا ، تناول معطفي من على ظهر المقعد . وضعه بكياسة على
كتفي ، وقادني بخطى خفيفة واثقة ، إلى الباب . على العتبة ، عاد
يربت — باسم — على كتفي .

وجدتني ، في سيارة أجرة مليئة بالركاب ، تطير بي ، تاركة
العاصمة ، مخترقة المزارع والحقول .
وادي مجردة يطل ويختفي ، بظلال الأشجار الجاثمة على ضفتيه .
الحقول العارية تركزض إلى الوراء . والشمس المبتورة عند الأفق ،
تلاحق السيارة بسياط باردة .
السيارات والحافلات والشاحنات تتوالى . يتجاوزنا بعضها . يصرّ
السائق على تجاوز السابقين . يتجاوزهم آخرون . يركب الجنون
الجميع ، جنون الوصول .
ظلال قائمة تغضن جبين الأرض المجهدة . الكل يركض في اتجاه
غايات بائسة ، والقدر يركض في اتجاه آخر ، والشمس تمضي
ببرودها ، ساخرة ، لمستقر لها ، مخلفة الأرض لدورانها المحموم .

هات يدك!

ما أحرّ نبض الحياة في كفيك . . في أصابعك!

خللها بين أصابعي! . . وتعال!

الآن!

كل كياني وكل خلية من جسدي ، ترف بإحساس باهر . .

كل جسدي الآن يصرخ بالنداء : أنا هنا! رغما عنك!

رغما عن أوهامك وخيالاتك وكبريائك! لا مهرب! . . أنا هنا!

الآن! أنا المعبود والقبلة! لا وجهة أخرى! لا نداء آخر غير ندائي!

الآن!

كل الزمن! كل الأمكنة لي!

ماذا عساها تفعل الروح لو عليك تمردت بعض الخلايا ، وانتشرت

تأكل بهجة الروح وعنفوانها؟

ماذا عساها تفعل الروح التي استبدت وألهمت عن جمال حضوري

وروعة عطائي .

شد حسام كتفي بقوة، حدق في وجهي من عليائه وصوته

يرتفع :

— أنت بخير!.. بخير!.. لم تتركين الأوهام تفسد حياتك وحياتي معك؟. ألم يطمئنك الطبيب؟!.. فقط، المطلوب الوقاية والمراقبة!

—

أجل!.. يبدو أنني بخير!.. على الأقل، الآن، أنا بخير!

أجل يا حسام!..

ارتميت في أحضانه، تركت أصابعه الدافئة تداعب عنقي تهدئ روعي، لأستكين على صدره العريض.

أجل!.. أنا بخير!.. ولكن يبدو أن مازوشية ما تسكنني، يحلو لها تحويل الوهم إلى يقين!..

أو هي متعة الروائي في رفيف الروح! تبتهج بالأوهام وتتشبث بالفجائع المكتوبة في دفاتر الخوف، لتشكل منها العوالم الجديدة، وتبعث الرؤى، وتكسوها رداء الحقيقة النابضة وتزينها بأجمل الكلمات!..!

كان جسدي مرهقا ، في حاجة إلى أن يغمره الماء ، يغسل
أتعبه ويهدئ انفعالاته المهلكة . . أجل ! . . الماء !
فليكسر الماء خوفي !
وليطهر الروح من جرائم الأدب !
وليحرق تميمة النبوءة !
«الماء ، هو التحول الأول للنار» خطرت تلك القولة ، فجأة ،
بالبال ،
. . فلاغرق في الماء !
لأغرق ! . . أغرق ! . . أغرق ! عليّ أعود إلى النار الأولى المقدسة !
نار التكوين !

في الحمام الأزرق ، تفجر الماء ، وعلا البخار ، وانتشر
شذى ماء الزهر المسكوب في المغطس ، مع موسيقى موزار القادمة
بأساها من المذيع المفتوح .
وشوشة الماء المغازل جسدي ، وبخار الحمام والموسيقى
العذبة الجارحة ، الروائح والأصدا ، والملامسات الحريية الدفيئة
للجسد والروح ، بدأت ترفعني على موجات أحلام ناعمة تحدر
الذاكرة .

في إغماضة كسولة في دف الماء ، بدا لي أنني أسمع صوتا
أعرفه . كانت الموسيقى قد انقطعت ، وعادت المذبة تحاور ضيفها
في برنامجي الأثير «مرايا المساء» .

ماج الماء حوالي والسؤال يأتي موقظا انتباهي .

— ضيفنا العزيز ، ما علاقتك بالبحر ؟

جاء صوت الرجل ببحة شجن عتيق :

— البحر؟! . . هو حياتي وموتي وذاكرتي! . . موجه المتلاطم يعيد
لي دوما الطفولة المقتلعة من أراضيها ، وذكرى الأعمار الممزقة بين
القارات ، معمقا إحساسي بالغربة .

تذكرته ، وقد عرفت الصوت . هو! الشاعر غسان
سلمان ، رفيق خليل! . . يوم التقينا ، بدا قليل الكلام ، مغلقا على
عوالمه . وفي السيارة العائدة من معرض الكتاب إلى تونس ، ظل
صامتا . لم ينس بغير بضع كلمات . وها هو الآن ، يأتي ببوحه
واعترافه ، بعد أن ترك في يدي وجعا غامضا وبطاقة هوية محايدة .

من أغوار النفس ، عاد صوته العميق :

— بي نقمة على البحر ، وحب مجنون له ! . . أحيانا ، أقود السيارة
باتجاه الشاطئ ، أركنها على الطريق ، وأنزل . على صخرة
أجلس ، في شاطئ قرطاج . تأخذني الريح إلى الآفاق البعيدة حيث
تركت طفولتي ، مرة واحدة ، وإلى الأبد . . أُمي وبيتي وفراخي ،
وخروفي السارح بين الأشجار . .
قاطعته المذبة سائلة :

— هل من شبه بين بحر قرطاج وبحر حيفا؟
— هنا ، يتلاطم الموج واصلا بين حيفا وقرطاج . . نفس الموج!
على صخور قرطاج ، أترك رذاذ الماء يرش وجهي ، يحمل لي
حبات رمل من شواطئنا البعيدة . . في وجه الشاطئ صرخت يوما :

يا ليتني أرمي خطاي
على طريق من زبد!
يا ليتني أرمي خطاي
على سرير من زبد!
حيفا! لماذا لا تطيري كالحمام؟
حيفا! لماذا لا أطيروا أنا؟

حيفا! لماذا لا تقولين الحقيقة ؟

أنت طير؟ . . أن بلد؟

يا ليتني أرمي خطاي

وأستريح . . إلى الأبد!

ران الصمت . . من أعماقه ارتفع صوت فيروز آسر الصفاء،

مغردا، جراح الحنين .

سنرجع يوما، . . إلى حينّا

ونغرق، في دافئات المنى

سنرجع . . مهما يمر الزمان

وتنأى المسافات، ما بيننا

فيا قلب مهلا! ولا ترتمي

على درب عودتنا، موهنا

ماج الماء . تناءت الموسيقى، وغابت . وعاد الصمت، والبخار،

والماء المترقق ينتظر .

مرة، لم أبلغ العشرين بعد، استبد بي الشوق إلى مراتع الصبا .

أخذت زورق صياد من الناقورة، كنت أخرج معه أحيانا للصيد .

كان البحر هادئاً ودوداً . جددت بكل قواي في اتجاه التلال البعيدة ،
حين ومضت نجمة في صفاء الأفق . ارتجف القلب فرحاً وأنا أشهد
جبل الكرمل يقترب ، يمد لي جناحه ويبعث نجوم الصبا ، داعية ،
على كتفيه .

قلت : قريباً سأرتقي على الشاطئ ، أعانق رمله الأليف . . سأقطع
شارع الملوك المحاذي وأرتقي الأدراج المحجرية العتيقة . . أمشي في
الدروب الأليفة ، أصعد التلة حيث بيتنا ، فأتنفس رائحة السنديان
والطيون . .

تراقصت الأحلام والنجوم في قلبي المعلق إلى الأرض القادمة .

فجأة ضج البحر حوالي . سلطت الكشافات على زورقي
وهجمت زوارق المراقبة تحيط بي . فتشوني . لم يكن معي سلاح .
جروني إلى الشاطئ مرددين : — ماذا جئت تفعل هنا ؟
قلت إنني اشتقت لحيفا ، مدينتي . اشتقت للشاطئ الذي كنت أنط
على رمله مع رفاقي . . لم يصدقوني . . رموا بي في أحد السجون ،
خمس سنوات ، زهرة العمر . طردوني بعدها خارج الحدود ،
مهديدين بالقتل إن فكرت بالعودة يوماً إلى . . إسرائيل .

ومع ذلك ، كنت أحسن حظا من ذاك الصياد العاشق
كمال ، كان فتى جميلا وجريئا . خرج صغيرا من حيفا بعد أن فقد
أسرته هناك .

ظل الشوق يأخذه كل يوم ليجلس أمام البحر ، على صخرة في
الناقورة ، قبل الغروب ، متوحدا يرنو إلى التلال البعيدة .

يوما ، احتدم الشوق في القلب العاشق ، ركب زورقه
وجدف من صور حتى حيفا ، محتما بلبيل دامس . لكنهم
اكتشفوه ، سلطوا أضواءهم على قاربه ، مسددين إليه البنادق ، لم
يصدقوا شوقه الذي قاده إلى موطنه . أربهم الجسد الفتى والقلب
العاشق المتحدي ، فماذا فعلوا ؟ . . كيف يعاقبونه ؟ . .

شدوه إلى قاع القارب ، عيناه للسماء ، «ودقوا يديه وكتفيه وقدميه
بالمسامير على خشب الزورق» . صرخ كمال . نزع الجسد الفتى .
سالت خيوط الدم على الجسد العاري . ضجت النوارس حواليه .
صخب البحر وتعالى الزبد نائرا يرش خيوط الدم .

قهقهوا شامتين أمام صرخة الألم والشوق المؤؤود في عينيه
الدائمتين . مضوا ، وتركوا كمال مصلوبا في زورقه بين أمواج
البحر المتلاطمة . بعد أيام سبعة ، أعاد البحر جثة كمال إلى الشاطئ
اللبناني .

أكثر من عشرين سنة مضت منذ رحيل العاشق القليل
ومنذ رحلتي البحرية تلك إلى حيفا .
التلال هناك لم تعد خضراء ، وبيوتنا الأرضية البسيطة المحفوفة
بالشجر المثمر الظليل احمت ، ارتفعت مكانها عمارات عالية
متلاصقة ، بدت كسرطان غريب ، سريع الانتشار ، امتد يأكل
الأرض بشراهة . مخالبه القارضة وصلت حتى الشاطئ وامتدت
تلتهم رمله وماءه وكل صفائه القديم .

صمت غسان ، وعادت موسيقى موزار هادرة ، ترتفع إلى
الأعالي . . إلى قمة الكرمل . . إلى أعالي السماء . . وتنهل بتسبيح
السموات ، وترتل الكمنجات الحزينة . . تنهل ، مع الماء ، على
جسد الفتى الجميل المدقوق على خشب الزورق . . على جسدي .

على بياض الورق الناعم ، وجدتني ، أنساق ، ساعات
طويلة في اليوم . . وشيئا فشيئا ، تساقط أثواب خوفي . شيئا فشيئا ،
تتحرر الروح . تتوهج . وتشتعل نيران خلاقة . وإذا طاقة رهيبة
تسكنني . تقودني رغما عني . ينطلق شررها يضيء عوالم بكرا
وحيوات جديدة .

أغلق علي مكتبي ، حتى لا يشعل الشرر المتطاير حريقا
بيتي . . أخرج بعدها ، وقد هدأت النيران ، أكثر هدوءا . . مولودا
بكرا . . كمن جاء من الجنة .

أمومة بكر عادت تنشر أجنحتها الشفافة الرحيمة على الصغيرين ،
على أوراق علي وكراريسه وكتبه ، تتابع الإعداد لامتحان القدام :
المراجعة الليلية لبرنامج السنة والمتابعة الدائمة لدروسه ، في انتظار
أول مناظرة هامة في حياة ابن الحادية عشرة ، مناظرة السنة
السادسة .

ومع ذلك ، عاتبني حسام لانشغالي الدائم ، لبعض إهمال
بتنوع الغذاء ، لاعتذاري عن الخروج معه في نزهة ، رغم تنقلاته
المتعددة مع تلاميذه في مباريات ودية خارج المعهد .

ولكنني كنت على الحافة .

نداءات قاهرة أسرة تدعوني إلى عدم التوقف وعدم الالتفات.

ألوهية داعية إلى الفوز بامتحاناتنا القادمة . . امتحان الخلق ! امتحان

البقاء الدائم!

بلا كل! !

يدعو النداء الداخلي الغامض .

الكلل يعنى التوقف على الحافة .

التوقف ، يعنى الالتقاء بالهاويات .

التوقف، يعني أن تعود الروح، ترتد.. وتتضاءل، وتجلس قبالة

المرأة، لتقرأ رسائل التهديد.

وقررت : لن أعود إلى الحكيم! .. أنا بخير!

كفاني زيارتي المتوالية إليه! .. لن أعود إليه ، إلا بعد مناظرة على

والاحتفال بنجاحه ، وسفري إلى ملتي الكتاب العرب بدمشق

لتقديم شهادتي عن الهوية.

.. سأنسى القلق الذي يصيبني بالعجز دهرا، قبل كل موعد. آن

أن أشد بقوة على قلبي ، وأستريح دمي من أجل إتمام روايتي

القادمة . سأعود للبحث عن وثائق تضيء ذاكرة الشاعر الفلسطيني في روايتي المفتوحة الأوراق .

أذكر غسان . أستعيد صوته الغائر المثلث أسمى وغربة في «مرايا المساء» . أذكر بطاقة الهوية المرمية في حقيبة يدي . أذكر نار الحنين في أشعاره التي توالى على مكتبي منذ أيام الدراسة .

غسان سلمان ، الشاعر الذي رحل بي إلى آفاق مدهشة يمتزج فيها الألم باللذة ، والغياب بالحضور .

.. أهم برفع السماعه إليه . تربد عيناه العميقتان هموما وأسئلة ، ومع ذلك تبرقان لحظة قبل أن يدعوني لاحتساء قهوة معه .

.. أنا أمضي قبل ميعادي .. مبكر

عمرنا أضيق منا

عمرنا أصغر .. أصغر ..

تعود كلماته .. بمرارتها تدعوني إلى مسابقة الزمن .

أرفع السماعه وأدير الأرقام .. أتردد لحظة ، وأراجع . أعيد

السماعة المرفوعة إلى مكانها ، وكبريائي يصدني عن الطلب .

التفت إلى دليل الهاتف ، لأبحث عن مركز الأبحاث ، الفلسطيني ، فقد أجد فيه بغيتي .

التّي

لَمْ أَتَيْتِ؟!

. لَمْ عَادَ عَطَرَ زَهْرَ الْأُرْنَجِ مَعَكَ، يَوْقُظُ صَبَاحَاتِ الصَّبَا، يَرْقُصُ الشَّجَرُ وَيَشْعَلُ فِي الْآنِ ذَاتَهُ جِرَاحَاتِ ذُرُوعِهَا رَمَادَ الْمَنَافِي، وَكَمَمُوا صَرَاحَهَا الدَّمَامِي بِوَجَبَاتِ اللَّجْوِ فِي أَرْضِي الْغُرْبَةِ الْمُتَوَالِيَةِ؟

. لَمْ أَتَيْتِ؟! لَتَقْطَعِي الْحَبَالَ الَّتِي رَبَطْتَنِي إِلَى مَرَايِ الْإِنْتِظَارِ، وَتَبْدَدِي غِمَامَةَ السُّكْرِ، فَيَفْتَحَ سَكِينُكَ جِرَاحِي وَيَقْطَعَ بَاقِي أَصَابِعِي الَّتِي طَيَّرَتْهَا الْحُرُوبُ؟! فَأَعُودُ أَنَا، غَسَانُ سَلْمَانَ، الْفِلَسْطِينِي، الشَّاعِرُ، بِشَوْقِي وَحَنِينِي وَجَنُونِي وَهَزَائِمِي، أَمَامَ عَيْنِكَ الْخُورَاوِينَ الْقَاهِرَتَيْنِ، عَلَى كُرْسِيِ الْإِعْتِرَافِ، وَأَنْتِ، فِي صَمْتِكَ الْمَهِيبِ، تَنْصَتِينَ.

أَقْبَلْتُ فِي سَكُونِ الْقِيلُولَةِ الْخَامِلَةِ، يَدُقُّ كَعْبُكَ الْعَالِي الْأَنْيَقُ هَدُوءَ مَرْكَزِ الْأَبْحَاثِ الْفِلَسْطِينِي بِضَاحِيَةِ الْمَنَازِهِ، تَسْبِقُكَ

نسمة منعشة من أريج عبق أليف . زها الممر بألوان فستانك
الصيفي المزهري ، يضم خصرنا نحيلاً وترفع أغصانه صدرا بأذخا
عنيدا يباهي بالقد الأهيف الرشيق والشمس البحرية قد وردت
ليونة الاستدارة الناعمة في كتفيك ، وأضفت سمرة خمرة أخاذة
على وجهك اللوزي الصبوح . نسيم البحر هب مع خصلات
شعرك المائج الطويل العابر الرواق .

أكان إغراؤك أقوى من صلابتي ؟

أم كان إغراء الحنين وبوابة الشوق التي انفتحت ، وقد أتيت بألوان
البحر وروائحه وأطيّاره ، معيدة للطفولة المهجرة حضن أمّ اختفت
ذات غدر رجيم ؟
أم كانت دعوة للنسيان ، مع امرأة شهية ، تنعم بحرية النساء ،
وجنون الأدباء ؟

دخلت نبيلة الكبرياء .

لم تأبهي لهذا الواقف في الرواق ، بلحية منسية غزاها الشيب ،
وسحنة شاحبة علاها الرماد . تقدمت بخطى واثقة من الكاتبة
الجالسة في الردهة ، سائلة إمكانية الحصول على وثائق ومعلومات
تخص تاريخ فلسطين .

حينها ، مضت إليك خطاي ، توقفت خلفك ، دعوتك مرحبا :

— أهلا بالروائية التونسية! التقينا مرة في معرض الكتاب .

نحن في خدمتك! .. هل من مساعدة ؟

هففت خصلات شعرك الطويل في وجهي ، وأنت

تلتفتين إلي ، وأشرق وجهك البهي وأنت تردين السلام قائلة :

— مفاجأة سعيدة! .. لم أتوقعها! .. كيف حال خليل ؟ كيف

حال الأهل والإخوة في فلسطين ؟

وامتدت يدك بحماسة وفرح طفولي مسلمة . حينها ، خطف نظري

بريق غصن الزيتون المشع في خاتمك الفضي . شددت أكثر على

يدك بيدي الإثنتين .

انتبهت إليك ، تسحبني يدك برفق ، وبارتباك خفي تلقين

خصلات الليل الثائر على الكتفين إلى الوراء .

عدت أعتذر عن عدم الكياسة وتركك واقفة في الردهة ، وأدعوك

لدخول مكثبي والتفضل بالجلوس ، نافضا دخان الذاكرة في مطفأة

اللقاء ..

بادرتك وأنت تستوين في مجلسك :

— قرأت حوارك الأخير في جريدة «الحياة». كنت رائعة، ولكن مثالية أكثر من اللزوم.

افتر ثغرك عن ابتسامة رقيقة. بدت أسنانك اللؤلؤية مغرية البياض واللمعان بين شفتيك القرنفليتين.

— شكرا على الثناء! ولكن ما يضير في أن نكون مثاليين؟ لا أدري كيف انفلت من أغوار النفس اعترافي:

— المثالية الآن، صورة جميلة مغرية، ولكنها محجوزة في إطار جامد داخل متحف الذاكرة الإنسانية. أعترف لك أن خيائنا المتوالية تركتني «أغتسل نهائيا من وهم المثالية».

تلاشت ابتسامتك. عبست مستنكرة والدهشة تطل من عينيك. عدت أقول مبررا، وأنا أتأمل وجهك الصبوح، وهالة الرخاء والنبيل تلفه في قطن أثير، رغم التحدي الصارخ في عينيك البراقيتين.

— للأسف، نحن لا نملك غير هذا الواقع الذي نتخبط فيه. هذا الشبر من الأرض الذي نقف عليه! هذا الجسد الذي نملك إن ترك لنا حق ملكيته ولم يقسم على المنافي والسجون. قطعاً، نملك التاريخ والذاكرة. ولكن، حتى الذاكرة، يحاولون سرقتها بشتى الطرق.

ألم تسمعي آخر نكتة؟ . . إليك إذن : «لقد قدمت فرقة موسيقية
إسرائيلية معروفة في إحدى البلدان الأوروبية ، أغنية لسيد درويش ،
معلنة ، بكل صفاقة ، أنها من التراث الإسرائيلي " !
عبرت ظلال خيبة إشراقة وجهك .
— ولكن . .

انتبهت للبداية الخاطئة للحديث الذي قدتك إليه . قاطعتك
معتذرا ، مغيرا مجراه ، بصوت حاولت أن يكون مرحا .
— آسف سيدتي الجميلة ! لم أسألك ماذا تشرين؟ عصيرا أم
قهوة؟ . . نحن في الخدمة ! كل المركز على ذمتك فيما تطلين .
دعوت الكاتبة لتنسخ لك ما تطلين من وثائق .

انبسطت تقاسيم وجهك وقد جلسنا متقابلين ، يضوع بيننا أريج
القهوة النافذ ، والصينية على المائدة الواطئة تحمل فنجانينا وبعض
سكر ، وأسئلة حارقة .

كنت أأامي ، أمام خريفي ، تسلطين سهام شمسك البحرية الوانقة
في جسدي ، تمسكين بي على ركبتك ، في وثائق تاريخي ، في صور
الذاكرة ، في خاتم أمي المشع بإصبعك . وإذا النسمة البحرية التي
تركتها طفلا تعود . تنبض في عروقي ، منعشة ، تحيي إعجابا

افتقدته من سنين ، لجمال مازال يحمله لي الكون ، ها قد أطل وأنا
أبحر في وجهك .

انفتحت يومها لغربتي سبل جديدة أخذتني إليك إلى
هاتفك ودياك ، يقودني السؤال عن أسرار رواية قادمة ، لم أكن
أدري أنني سأكون أحد أبطالها .

أكنت تدركين يومها أن يدك التونسيين قد أخذنا ترممان
بعض انكساراتي؟ وأنت أصبحت أرضي وشوقي ، وأنت تحملين
في حقيبتك خرائطي وموقع زيتوني وبيتي ، كل ما فيك يضوع
بزهر البرتقال والأرنج في الوطن المحتل؟!

بحركة خفية ، سحبت آلة التسجيل من حقيبة يدك .
شاهدتك ترفعين بعدها فنجانك وعيناك ترنوان إليّ . قلت :
— إن التاريخ تسجله الوثائق ، ولكن تحييه الشهادات .
واقترب الفنجان ، على مهل ، من شفتيك الريانتين . احتيست
رشفة من قهوتك ووضعت الفنجان . تعلق عيناك بك وأنت
تسألين : — كيف أتيت إلى تونس؟

وصخب الموج في عينيك ، وعاد البحر هائجا مائجا بي من جديد ، راميا بي من شواطئ حيفا إلى أمواج صور وصيدا ، إلى بيروت ، إلى قرطاج .

عاد البحر صاخبا هادرا يضرب جنبات الباخرة القبرصية . يضرب قلوبنا وأحشاءنا . يعصر أمعاءنا .

مرحلون ، مهجرون من جديد ، من أرض ارتوت بدمائنا ، مخلفين الأطفال والنساء في الملاجئ المهددة بالمجازر القادمة . ننثني على أوجاعنا . ندخل قمراتنا نرمي إرهاب شهور الحصار الماضية على الأسرة اليابسة . نعود إلى سطح السفينة ، نحاول أن نرمي غضبنا المغلول إلى الأمواج العاتية . يقابلنا الأفق الأزرق ساخرا ، عدائيا .

عيون غربان عملاقة ظلت في متاهة الماء ترقبنا من بعيد ، البوارج الأمريكية المتابعة للألف ومائة مقاتل فلسطيني ، المهجرين في «السّول فرين» من بيروت إلى تونس .

صيف ١٩٨٢ ! وبيروت ! العاصمة المحاصرة النازفة المحترقة ابتلع آخر ذرى جبالها الماء . . تلاشت أصوات الأرض ، وتلاشى الثبات من تحت أقدامنا ، وصفعنا الموج من كل الجهات

والسفينة تعلق وتنخفض ، والريح تصفر في الأذان . . يزداد صفيها
كلما توغلنا ، غامرا ذاكرة يجرونها للنسيان .

ولكن ، هل تنسى الذاكرة ؟

هل تنسى الذاكرة الوطن المغتصب والطفولة الموقودة ؟ . . والأم
الضائعة حبلى في شهرها السابع ؟ والأخ ، الفتى القليل في ساحة
المدينة ؟ . . ولم نعلم باستشهاده إلا بعد الترحيل ؟

هل تنسى الذاكرة أبي الهالك حزنا وكمدا في خيم اللاجئين ، ولم
نكمل فيه شهرنا السابع ؟ . . يوم أخذوه ليواري التراب ، ركضت
إليه لألقي بنفسي فوقه في الحفرة . . ولكنهم أمسكوا بي ، وجروني
بقوة بعيدا عن القبر المفتوح .

تلك الليلة ، وقد خرج صاحب البيت الذي آواني لإسعاف مريض
يحتضر في المخيم ، أخذت أصرخ وأبكي وأنتحب ونشيج حاد
يهزني ، كنت أعدو كالمجنون من جهة إلى أخرى . اندفعت إلى
الباب ، وركضت خارجا لأمضي إلى الخلاء . سنواتي الست
وقتها ، لم تكن تتحمل أن أفقد أبي وأمي وأهلي وصحبي وبيتي ،
دفعه واحدة .

رجع أبي يوما بعد إحدى محاولاته العودة إلى حيفا ، بحفنة
من تراب ، زرع فيها حبقا ونعنعا يشم منه رائحة أرضه المغتصبة .
كنا نرعاه ونسقيه معا .

ظل يؤكد لي ، دوما : سنعود إلى بيتنا . سنجد أمك ، والوليد
الذي لم نره . . لا شك أنها بقيت في دار جدتك المنزوية خلف
الكروم بعيدا عن الخطر .

كنت أرقد على البساط ، إلى جانبه ، أستمع في المذياع إلى صوت
فيروز الملائكي يغني : . . سنرجع يوما إلى حينا . . أتخيل أمي
تهدهدني ، وأنا في انتظار عودتي .

ولكن مرت السنون . صلب عودي . كبرت وابتعدنا ،
أكثر فأكثر عن الوطن .

أتساءل أحيانا : هل أنا الذي ضعت مع أهلي وشعبي ؟ أم الوطن
هو الذي ضاع ؟

قاومت في البداية . جاهدت وناضلت . وسكنت أخيرا في الضياع
والريح .

ها أنا الآن ، أحيانا ، أمسكني من ضياعي ، وأنزل عن
جناح الريح ، إذ تنهض الأرض في . تنبض شوقا إلى جسد أنثوي

شهري يسندني ، يبدد غربتي ، لأقف على صلابة الأرض ، علي
أجد في المرأة وطني .

ولكن ، تعود تأخذني الريح ، تطوح بي ، فأفتح قناني النسيان ،
أسكت جحيم الروح ، ووحدة الجسد المعوق المنفي . . .
إلى أن . . . لقيتك ! . .

فابقي ولا تمضي أيتها الغالية!

عاد صدى صوتك السائل ، يأخذني من شرودي
وصممتي ، محاصرا ذاكرة الضياع :
— حدثني عن بيروت يوم الترحيل !

وعاد البحر الهادر الصاخب . . وروائح الحرائق
والبارود . . وبيروت الحاضنة لدمنا المهدور منذ ١٩٤٨ ، أصبحت
لوحة كافكاوية يرسم جذرانها المخربة الدم والهباب واللغة التي
تداخلت شعاراتها مع أسماء الشهداء والمفقودين . . واشتد الحصار
من الجهات الأربع .

وإذا أنت فـي الخـنـدق
يأتى الرصاص إلى كـ

من كل الجهات الأربع —————
يأتي الرصاص إليك —————
من كل الشبايبك التي فتحت
على كل الجهات الأربع —————
ككل الجهات —————
الأربع ————— .

الآن، يعرفون أن خيط معاويه
هو حبل مشنقة بكف معاويه .

سقط آلاف القتلى من المدنيين . . خمسون ألفا بين قتيل
وجريح . منع إسعاف الجرحى في الطرقات . ابتلعت القنابل
الفراغية الحديثة البنايات بأهاليها . أكد ياسر عرفات أن الثورة
الفلسطينية والقوات المشتركة لن تتزحزح عن مواقعها وستواصل
تصديها للعدو المعتدي وهتفنا منشدين :

«نحن الواقفون على خط النار نعلن ما يلي :

لن نترك الخندق

حتى يمر الليل

بيروت للمطلق

وعيوننا للرمال

في البدء كان القول
والآن في الخنـ____دق
ظهرت سمات الحمل
لن نترك الخنـ____دق
لن نترك الخنـ____دق»
وأعلنت صحف العدو فرار أكثر من أربعة آلاف جندي من
وحداته .

ولكن بعد ما يقارب الثلاثة شهور من الاستماتة في الدفاع
عن مدينة تغتصب ، يتواطأ البر والبحر والجو ندعى للرحيل عن
بيروت وترك كامل التراب اللبناني ، وإلا استباحوا حرق كل
المدينة بعد أن عجزوا عن إخراجنا منها بكل بطش الأسلحة
المحرمة دوليا . ندعى للرحيل من جديد ، وقد سقط القناع !
وصرخ محمود :

سقـ____ط القنـ____ع !
فلا إخوة لك يا أخي !
لا أصدق____ء !
لا صديق ! لا قناع !

لا الماء عنـدك

لا الدواء ولا السمـاء

ولا الدماء ولا الشراع!

ولا الأمام ولا السـوراء!

سقط القناع، وجاءت أوامر التهجير، ليقطعنا سكين قرار
الحاكمين، فنلقي السلاح ونوزع في ملاجئ كل الأصقاع، تحملنا
البواخر بعيدا عن بيروت.. جموع إلى عدن، جموع إلى العراق،
جموع إلى تونس.. وفي حفل تقسيم الجسد الفلسطيني، يزداد
الوطن ابتعادا و غربة.

انطلقت بنا شاحنات الجيش اللبناني، من مدخل المدينة
الرياضية في حي جامعة بيروت الغربية، لتأخذنا إلى الميناء، تحت
شمس الصيف الحريق. على طول الطريق، اصطفت الجماهير
الفلسطينية واللبنانية مودعة، رافعة شعارات الثورة والنصر، في
حين اجتاحت الجموع ميناء بيروت. طوقته صاحبة، هاتفه
للمقاتلين الذين ظلوا ما يقارب الثلاثة شهور، يدافعون عن الوطن
المهدور، تحت القنابل العنقودية والانشطارية والفراغية، تتساقط
عليهم من البر والبحر والجو.

تشبث أحد الشبان بشاحنة قادمة بالمقاتلين . ظل معلقا
بنافذة الشاحنة الماضية إلى الميناء ، شادا بقوة يد أحد المرحلين . لم
يتركها إلا بعد أن رمى له المقاتل خوذته .

كان صوت الرصاص لا يتوقف ، يطلقه في الفضاء مقاتلوا الحركة
الوطنية في شوارع بيروت الغربية ، تحية لرفاق السلاح الذين
يغادرونهم ، في حين كان المواطنون يلقون لنا بحففات من حبوب
الأرز ، وفاء لعادة لبنان في التعبير عن التحية والعرفان بالجميل .

وقتها ، كان المبعوث الأممي أميل حبيب ، المخطط لعملية
الترحيل ، منتصباً فوق مبنى شركة الكهرباء اللبنانية المطلّة على
الميناء ، يراقب المشهد مبتهجا بجودة التخطيط ، بينما كان الصوت
القوي الصارخ لأحد المقاتلين ، يعلو صدها في الأرجاء من مكبر
الصوت ، هاتفا :

— أبداً! .. لن
ننساك يا
بيروت!
— أبداً! .. لن ننساك يا
بيروت! .. لن ننساك!

صفرت السفينة نعيبا طويلا غامرا ، انتشر صدهاء في كل الآفاق . وارتفعت أيادي الشباب الملوحة للمودعين ، وقد فك الياطر ومخرت السول فرين عباب الماء . وظلت العيون المكبرة على وجه المبعوث الأمريكي في أعلى المبنى ، لا تسقط ، متابعة التهجير الجديد ، حتى الغياب . وخلف ارتعاشة دمع مكابر ، اختفت بيروت وابتلعها الماء .

كان البحر لا مباليا ، مغيظا ، قاسيا ، يضرب جنبات الباخرة . يضرب أحشاءنا . يأخذنا الدوار . . يقطعنا الأسى والغضب ، ونحن نبصر البوارج الأمريكية تراقبنا من بعيد ، تصر على عطشنا ، تحرمننا من مؤونة التزود بالماء من جزيرة كريت التي كانت تنتظر المقاتلين الذين ظلوا في الحصار صامدين ، يدافعون عن عاصمة أحرقتها الجنون ، ليتعاون المتواطؤون على تهجيرهم من جديد ، من بيروت ، إلى جزيرة قبرص إلى أول مرفأ تونسي .

في فجر اليوم السابع ، السبت ٢٨ أغسطس ١٩٨٢ ، أطلت الأرض ، ولاحت من بعيد البيوت البيضاء ، تحت سماء شديدة الصفاء ، توحى بالهدوء الذي يغمر المدينة ، هدوء المنافي ، تختار لنا بذكاء ماكر ، لتساعدنا على ابتلاع بذور النسيان .

تجمع الرفاق على سطح السفينة . أطلت بينهم هدى
شعلان تحمل على كتفها أحد الأطفال من أشبال الثورة القادمين
مع المقاتلين ، عيناها تفيضان دموعا ، وهي ترفع الرأس إلى السماء
إلى أسراب الطائرات التونسية القادمة تحلق فوقنا ، مرحلة
بالفلسطينيين المرحلين ، سائلة : — أين كانت طائرات العرب ، في
جحيم بيروت ؟

كانت الطائرات تحوم ، والباخرة تدخل الميناء ، ومئات الشباب
متكئين على السياج ينتظرون النزول ، وبنزرت المدينة التونسية
البيضاء ترفع الأعلام واللافتات وتصدح بالأناشيد المدوية ،
وصوت أنثوي بهيج ، يعلو صدها بالغناء ، غامرا بقية الأصوات ،
«بالأُمــــن والأُمــــنــــان ، يحيا
هنا الإنسانــــان !
.. بالأُمــــن والأُمــــنــــان ، يحيا
هنا الإنسانــــان !»

وعلى رصيف الميناء ، على شرفات العمارات والبناءات المقابلة
على امتداد الجسر المعلق فوق القنال ، في الشوارع والطرقات
المقابلة ، كانت الأيادي تلوح بعلامات النصر ، والأعلام ترفرف
عالية ، والحناجر تهتف : بالروح ! بالدم ! نفديك يا فلسطين !

فتجيب أصوات الشباب من على سطح الباخرة : بالروح ! بالدم !
حنكمل المشوار ! حنكمل المشوار !

تقدمت سيارات الإسعاف ، تنتظر نزول جرحانا لنقلهم إلى
المستشفيات . خلفها ، على امتداد الرصيف ، كانت عشرات
الشاحنات التابعة للجيش التونسي ، تترقب ركوبنا ، لنرحل إلى
مخيم جديد ، بعيدا عن الساحل ، ونسلم أسلحتنا للجيش
التونسي .

نزلت سلم الباخرة بشعري الأهوج ولحيتي الكثة .
ما إن وطأت قدماي الأرض حتى امتدت أيادي القادمين تنتشلني
من هاوية المجازر والهزائم والمؤامرات ، مصافحة مشجعة .
تقدمت خطوات ، مفعما بروح المؤازرة .
في إحدى الشاحنات ، ركبت مع الرفاق ، وانطلقت الشاحنة بنا .
ظلت عيوننا ترنو إلى المدينة البحرية البيضاء في أحضان المتوسط
تدعو لنا بالنصر والسلام .

.. اختفت المدينة ، وغاب البحر ، وتوالى الرحيل . . من وادي
الزرقاء بولاية باجة ، بعيدا عن الساحل ، إلى حمام الشط ، إلى
المرسى إلى قرطاج . . طويت أوراق ذاكرة المنافي . وأصبحت أبحاث

في كل أرض عن مستقر لا يرتج . فمن سفر إلى سفر ، ومن تهجير إلى تهجير ، ما عادت الأرض تستوي تحت قدمي . أصبحت مائعة ، زئبقية ، وهمية أحيانا . تلاشى الثبات الذي يقف عليه الإنسان . أصبحت الريح تحملني ، كما أحملها .

وشيئا فشيئا ، ذوى وتساقط ورق شجر الزيتون والبرتقال والأرنج حول بيت الصبا ، وتحول الطفل القافر بين أغصانه ، ريحا خريفية دائمة ، تدور حول الأرض . . تدور في دوامة التيه الفلسطيني .

في ذاك اليوم الهادر . . في ٢٨ أغسطس ١٩٨٢ ، والباخرة القبرصية القادمة من بيروت تلقيني إلى الميناء التونسي ، منذ أكثر من عشر سنين ، ما كنت أدري أنها قد رمتني إلى رصيفك ، حيث كنت تنتظرين مع الجموع ، شابة ، يترقرق في عينيها الدمع ، تدافع عن موطن قدمين على الرصيف ، تطل منه على المقاتلين الفلسطينيين المنفيين ، وترفع يدها ملوحة مرحة ، تكتب لي قصيدة تعرش بالخضرة التي تساقطت عن أيامي ، لتعيدني يوما إلى مدينة البياض .

انتبهت إليك تلملمين أوراقك ، تخفين آلة التسجيل ،
وتلقين بخصلات الليل إلى الوراء ، وأنت تقفين بقوامك الرشيق
وأسى طفولي يغمر وجهك ، تلقين بأدب ونعومة كلماتك الأخيرة

— شكرا على هذه الشهادة! . . لا شك أنها ستفيدني في روايتي!
واستدرت ، ليدوس كعبك العالي الأنيق الأرض ، في خطوات
سريعة واثقة ، نحو الباب .

شكرا على هـ_____هذه
الشه_____ادة!

ظلت الجدران تردد صدى صوتك في المكتب الخالي . ولكنني ، ما
كنت أدري ، أقدمت لروائية ، تبحث في ذاكرة الوطن ، معلومات
سجلتها الوقائع والأرقام ، أم قدمت لها بعض شظايا الروح؟

رجعت بعد توديعك إلى مكتبي .

على المنضدة الواطئة ، ظلت الصينية باردة ، صامته بفنجانيتها
المتقابلين . قهوتك لم تكتمل . وقهوتي ظلت على حالها .

جال بصري بين صور الشهداء والخرائط المعلقة على الجدران
الشاحبة . خرج البحر يضرب موجه الشواطئ ، يطردني ، ويعود
يأخذني ، يرشني برمال شواطئنا البعيدة .

نهضت ، أدعو في الهاتف رفيق المنفى إليّ . . إلى
قرطاج . . لنيم صوب الشاطئ! . . على هدير البحر ، سنفتح
قنينة جديدة . سنشعل جمر النرجيلة ، نقلبه ونزهره ونحرق
الدخان .

أخذت مفاتيح السيارة وناديت : إليّ يا خليل ! يا رفيق الغربة!
فأنا في حاجة إلى أن ألعن البحر وأدعوه ! أسبه وأرتمي في أحضانه ،
وأطلق نيران رشاشي المسلوب خارج مكاتب الوعي ومقاعد
الانتظار !

معك يا رفيق الغربة ! سأشرب نخب دجلة ! سنشرب نخب أشهى
امرأة تفتح أوراقها للدمي !

خوف التفاح

١

بدا الرجل البرنزي ، المستسلم لعشب الأرض ، شهيا قربي ، في
حضن الليل ، وظلال أشجار كثيفة حولنا تحرس المكان الغامض
البعيد . . كان شبيها بغسان . . أو لعله هو . .

في عمق الليل والظلمة ، كان جسدانا نصف عاريين ، وحرارة
توهج في الدواخل ، تلهبنا . . كنت أعني جيدا أنني بعيدة عن
العيون والقوانين ، والمدن ، وأن لا شيء الآن ، غير الليل الغامر
والأرض الحاضنة والإحساس الطاغي الملهب ، ورغبة مجنونة في
التجربة الخاصة المنفلتة من كل أنظمة الدنيا . . تجربة متجاوزة ،
فريدة ، خلاقة .

كانت الذراعان القويتان تمتدان . . تحيطان بي . ولكن جسدي كان
ينفلت . . يتقلب على الأرض ، وعينايتان تتلفتان حوالي ، إلى أشباح
الأشجار المتحركة القادمة ، تحت سماء شبه مقمرة . . إلى الأفق
الداجي البعيد الكاتم أسرار . . إحساس غامض بأني

مراقبة . . مطاردة . . ومع ذلك ، في مزيج من الدهشة والخوف
والرغبة الحارقة ، يسري صوت في الكيان ، بأني الآن جزء من
الطبيعة ، من الليل ، من النسيم ، وأن الروح والجسد ، لأول مرة ،
يتوقان ، معا ، إلى التجربة .

بين دعوة الإقدام والإحجام ، بين الجنون والحكمة ، ونحن على
الأرض ، شبه عارين ، شاهدت أفق الليل ينشر نورا خافتا موردا ،
ينطلق أمواجاً دائرية متوالية إلينا . وكمن ألقى حجرا في بركة ماء ،
تمتد أمواج الضوء الناعم حولنا ، تحضننا ، وإذا نحن المركز والكل
حولنا يدور . . الليل والنجوم والقمر الخجول المثل ودوائر الضوء
المتوالية حتى المنتهى ، بينما الأرض الحاضنة ، تكاد تنشق وتتناثر في
المللكوت من فيض الوجد والانشاء .

فجأة ، وجدتني أقتلع جسدي من حضن الأرض .
تنفتح عيناى باندهاش وأنا أبصرني شبه عارية ، ويد الرجل الحارقة
مازالت تمسك يدي . جذبتها بقوة إلي ، وإذا بها ، تنفصل ، عن
جسدي ، من الكتف وتبقى يدي وكامل ذراعي معه .
أخذت أركض . . أركض بعيدا ، في ظلمة الليل ، وقد اختفت
النجوم ودوائر الضوء ، بعيدا عن عيون الشجر ، بجسدي المبتور ،

بعيدا عن الدعوة الخارقة . . نادتني الأرض ، سدى . . كنت
أركض . . أركض ، ماضية إلى برزخ مجهول .

أخيرا ، توقفت لاهثة . . تلفت حوالي . . وإذا بي ، في
غرفتي ، وحيدة ، في الفراش . تفقدت ، مرتعة ، ذراعي المقطوعة ،
وتنفست الصعداء ، إذ وجدت معي يدي الإثنتين .
كان ضوء الفجر قد بدأ يتسلل بهدوء ، من النافذة
المقابلة .

تذكرت أن لي اليوم موعدا مع الدكتور سليم ، أجلته مرات حتى
مضى الصيف ورحل الخريف ، ولم يعد لي مفر من العودة إليه ،
فقد اجتاز علي المناظرة بامتياز ، ومرت الندوة التي شاركت فيها
بدمشق ، بسلام . عدت أدس وجهي في الوسادة الدافئة ، وأرفع
على رأسي الغطاء الصوفي ، فالوقت مازال مبكرا ، والبرد واخز
هذا الصباح .

فتح السائق الأنيق المسجل ، وانطلقت الموسيقى تملأ فضاء الحافلة وصوت صباح فخري يشدو بالغناء .

بينما طارت الحافلة أمام الطريق المنبسط الفسيح .

أخذ النغم الطروب يميل الرؤوس . يغازل الروح . يتغلغل
في كل الحواس . وإحساس طارئ يطفو ، مبدداً قلقي وهو اجسي
الماضية ، بأن الحياة جديرة بأن تحيي .

الصوت الأصيل الصادح يشدو مع الإيقاع العذب :

مَالِ الْعِيَالِ
أَبْصَرْتُ

والضــــنــــنــــى قــــد
أخــــبــــرتُ
وغــــدا الضــــبــــبــــى
بــــمــــمــــمــــد
وبــــكــــكــــائى لا
يــــفــــيــــد
طــــطــــطــــاب لــــلــــى
فــــيــــهــــا الــــهــــوى
واســــتــــقــــرت
بالــــنــــوى
عــــامــــلــــتــــنــــى
بالــــجــــفــــفــــى
ســــاء وهــــى لا
تــــدرى الــــوفــــاء

يترنم الصوت بذبذبات الروح . يسمح بعذوبته شهادات الأطباء
وصور الأشعة والتخطيط المرمية في حضني . يسمح كل شيء .
يحيله وهما راحلا ، بياضا صافيا . بياض يمكن أن ترسم فوقه كل

يرميني ، يلقيني إلى الرمل المبلل ، ويعود يأخذني . أغوص في
أعماق الزرقة المنعشة . ويستحيل العالم ورائي إلى شاطئ بعيد
منسي .

.. أنا بخير! .. أجل! .. أنا بألف خير!

إذن ، لمَ أنا راحلة ؟ ؟ ؟ ؟

قلت لها يا حلوة
ارويني وعلمي
عيونك فرجينيني
قلت لـي روح يا
مسكين من
يا
عيوني عيون الغزلان

قلت لها يا حلوة
ارويني!!!
رفعتُ الكأس الطافحة ، إلى فمي . . رحلت في حبيبات
النشوة . . شربت . ورويت ، سبحت في النشوة ، أشرقت ، حمت
وتلاشيت مع الأنغام .

فجأة، اختفى موكب الطرب ، وارتفع هدير .
تلفتت دهشتي حوالي . . وإذا أنا على الأرض ، وبنيات العاصمة
العالية المتراصة تطل من النوافذ ، والسماء تختفي .
انتبهت للحافلة ترتج بعنف وتتوقف ، والملف الطبي يسقط من
حضني . أسرعت أجمع ما تناثر بين أرجل المسافرين الواقفين ، فقد
وصلنا إلى المحطة وانفتح الباب للنزول .

عاد القلق يطرق برتابة ثاقبة سكون الممر وقاعة الانتظار
في عيادة الطبيب .

طحالب الخوف بدأت تمحو صفو الساعة النادرة الماضية في
الحافلة ، تعيدني إلى توترتي وتساؤلي المعتاد عند كل زيارة : أي
طقس سأعود به عند الخروج ؟

أخيرا ، بلباقة ولطف ، استقبلني د . سليم عند باب
مكتبه ، مبادرا بمغازلاته الطائفة المفاجئة :

— يا لك من امرأة ! دوما تزدادين شبابا وجاذبية ! . . والآن كيف
أنت ؟

واستدار ماضيا إلى مكتبه .

فتح ملفي ، وشرع يقرأ نتائج التصوير الحراري التي أخذت لي قبل
ساعة في مركز التصوير . سرعان ما رفع الرأس ، لائما :
— أين كنت طيلة هذه الشهور ؟ . . ما يقارب العام ! . .
وصمت يراجع الملف .

*

*

*

كم مرة قادتني خطاي إلى مكتبه ؟!

يستقبلني في ألفة مدهشة . تشتعل عيناه الزرقاوان النفاذتان ببهجة حياة يسرّ بها وجهه الباش المشدود العضلات ، المشرب حمرة على الدوام . يأتيني ، سريع الحركة ، نشيطا ، باهر العنفوان ، يثير السؤال : كيف يقدر على استبقاء كل هذه الحيوية التي يتقد بها جسده ؟ كل هذه الرغبات التي تموج في زرقة عينيه ، بين الجراح والسقام ؟

يربكني أحيانا بسؤال حميمي . يسير بي بعد الفحص إلى الباب ، مودعا ، مربتا على كتفي ، قائلا ، أحيانا :
— استمتعي بحياتك ! . . إلى اللقاء عزيزتي !

أهرب من غزل عينيه الشاقتين . وأعود ، إلى مهارة الحكمة وإنسانيتها لديه ، وإذا به يباغتني بالسؤال : ماذا تكتين هذه الأيام

* * *

وقف ، يمعن في صور الأشعة المثبتة عاليا في مربع الضوء . التفت بعدها إلي . كان البحر الأزرق قائما في عينيه . أمسك بيدي ، لأقرب من الصور المعلقة .

— انظري ! هنا تكلس صغير ! . . وهنا . . وهنا ! ثلاث حقول متكلسة في نفس الثدي ، لم تكن موجودة من قبل !

عاد، يدعوني للاستلقاء . رفع هذه المرة أقلامه وأقبل نحو جسدي الممدد على طاولة الكشف، يقيس بالمليمتر، ويحدد بالأقلام اللبديّة الحمراء والسوداء ما كشفتهُ الصور : خطوطاً مستقيمة صارخة، من تورد الحلمة إلى ناحية التكلس، تشوّه البياض . وبصوت حازم أعلن :

— يجب التثبت من هدوء هذه المناطق، في أقرب وقت .

ارتفع صوتي المتوتر سائلاً : — . كيف؟

أجاب بنبرة حاسمة :

— بعملية جراحية . يمكن أن أحجز لك الغرفة في المصحّة من الآن!

اختاري اليوم الذي يناسبك! . المهم، لا تتجاوزي الأسبوع!

بكلماته الحذرة المنتقاة، قادني باسمًا إلى الباب، مربّتا على كتفي، مهدئًا مخاوفي . . لم يذكر أن أرضي الآن، يهددها الخراب .

— اطمئني! المهم الآن التخلص من هذا التكلس! التحليل هو الذي سيوضح الأمور .

تشبّثت الأرض، لحظة، بزرقة السماء الداكنة في عينيه . حدقت في أعماق الزرقة الكاوية، مستنجدة في صمت .

كنت كتبت يوما ، على روايتي الأخيرة التي لم أهدها له قط :
«عسى ألا يمسنى مشرطك!»

ولكنه لم يقرأ الكتاب ولا الإهداء . وها هو يدعو مشرطه ! يشحذه
ليفتح لحمي ، ويقرأ ، عوضا عن حروفي ، أسرار جسدي ، أسرار
أرض تدور ، كائنة نارها الموقدة .

* * *

في التاكسي ، إلى محطة الرجوع ، تعلقت دمعة قلقه
بأهدابي . رفعت الرأس مكابرة ، أخنق الدمعة الراجفة . عاد
صوت الممرضة ، وهي تعد ملفي للحكيم ، قبل الفحص الأول ،
يطاردني . . يحاصرني بأسئلته الثاقبة الباحثة في سنوات العمر
وتاريخ السلالة ، يعيدني إلى مآتم حبيبات راحلات . . ابنة عمي
نجلاء . . خالتي حليلة ، وصوتي لا يجد غير الكلمتين الوحيدتين
للجواب . . نعم ، لا . . نعم . . لا . . نعم . . !

داهمتني كلمات الدكتور بيتر ، جافة ، عارية ، وأنا
أنقب ، ذات خوف ، باحثة في الكتب العلمية :
«من عوامل التهديد بالداء العضال : — العامل الوراثي — العامل
النفسي — أكياس الثدي» .

. . ألا تلتقي العوامل الثلاثة على هشاشة جسدي ؟ ترفع الراية
الحمراء منذرة الروح القلقة المسافرة دوما ، باحثة في أدغال
المجهول ؟!

بغته ، ارتجت السيارة بعنف ، وهي تتوقف أمام الضوء
الأحمر . وقتها ، بين ظلمة الليل القادم ، والأضواء الطائرة ، فاضت
الدمعة المكابرة ، تحت نظارتي التي ظلت ، رغم الليل الدايم ،
حجابي وفاصلي بين عالمين ، عالم صاحب مضي ، وعالم مجهول
آت .

* * *

في مقهى المحطة ، جلست ، مع فنجان قهوة مركزة ، أنتظر
حافلة المساء الأخيرة . الكراسي على الجادة ، عارية . المناضد
البلاستيكية عارية . الأشجار القليلة ، على امتداد الطريق ،
عارية . مجرد أعواد طويلة ، سوداء ، جرداء ، تشق برودة الليل
الندية . والقلم في يدي ! الوحيد الذي يرتدي حله ، حلل اللغة !
يدثرني ! . . يللم عني الخوف والبرد والوحدة . الوحدة
الموحشة ، العميقة ، الساحقة ، التي لا يصحبك فيها أحد إلى
المجهول .

ارتفع أذان صلاة العشاء ، وعلا ترتيل القرآن .

.. لم يذكرني الترتيل دوماً بالنهايات؟؟

.. ومع هذا ، الآن ، علي أن أتماسك !

علي أن أعد برامج أيامي القادمة! .. برامج؟؟ .. يا للكلمات
المغرورة!

الآن ، كل البرامج والجداول تسقط .

الجدول الوحيد القريب الواضح :

.. بعد أيام ، أدخل المصححة !

.. بعد أيام ، ألازم الفراش !

.. بعد أيام ، يفتح التكلس وتروي الأرض أخبارها . . بعد
أيام ، . . . !

ومع هذا ، سأتماسك !

.. سأقف نخلة قويمة ، لرياح الخوف والمجهول

.. سأعود ، أعد البيت والأطفال للقادم .

.. أشتري لعلي وسناء ثياب العيد

.. أرتب لهما الدولاب المشوش

.. أعد لهما مربى البرتقال المشتهى

. أملاً علب التوابل الفارغة المنسية
. أعبى رفوف الثلاجة بما يحبون
. أقتني قصصاً ملونة وأشرطة أغنيات أطفال، جديدة .
. سأقابل سلمى ، وأوصيها برعاية الطفلين ، إن تغيبت .
وحسام؟! . . ماذا أقول لحسام؟
ماذا أقول ، وأقدح الأمومة في صدري ، قريباً ، ينز حليبها دماً ،
يضرع أرضاً تتعري لقدر مجهول؟! .

توقفت يده فجأة بالفرشاة على صحن الطعام . ركز نظرة على وجهي مستغربا ، وأنا أعتذر عن عدم وجود كتاب معي لإهدائه له . وبلوم العارف الخبير ، أطلق سؤاله : « كيف لا تتنقلين بسلاحك؟ »

الآن فقط ، أذكر ذاك السؤال ، والصوت الرصين يطغى على ماء النافورة الدمشقية المحاذية ، يترقق بعقب التاريخ .
كان الشيخ الفيلسوف الحكيم أمين العالم يجلس قبالي ، على سفرة الطعام ، بوجهه البشوش وتواضعه النبيل ، ونحن نتحاور ، على هامش ندوة الهوية والآخر ، حول هويتنا المهددة بالتخريب ، ودور الكلمة في مواجهة الخطر .

ها أنا الآن — بعد شهور من لقائنا الجميل — أذكر كلماتك أيها الشيخ الحكيم !
ها أنا الآن ، أشد على سلاحي ! أشد على قلمي ، وقد عدت من زيارتي للدكتور سليم ، أطوقني بالكتب والقهوة والأقلام والمذياع العالي بالغناء على أقصاه . أطوقني ضد الزمن .

✱ ✱ ✱

شمس فيفري تتراقص أشعتها مع ظلال الأشجار ، بين يدي ،
والقمح الأخضر في حقوله ، تموج سنابله المشعة مع الريح ،
والطريق يفتح لنا ، بين الحقول البراقة الاخضرار . تسري عدوى
الأرض المنتشية إلي . يغزوني إحساس بالاتساع والامتلاء
والصلابة .

أجـل! أنـنا
قـادرة!

سأكمل قصة غرناطة! سأنتهي الفصل الجديد من الرواية! سأكمل قراءة كتاب غسان سلمان «ذاكرة المنفى» سأقطف من وجع ذاكرة الجسد المقتلع من الأرض، شهادات لروايتي!

قطع! أنا! أنظر
قادة! القلب! م طوع
يدي!

والأرض معطاء، مشعة الإغراء والبذخ!
سريها الراقص الحريري يتمايل يانع الخضرة، مؤتلق الانتشاء!
والجسد، يمتلئ، رغبة، يزداد عنفوانا وجاذبية يعكسها التماع
شفتي حسام المنفرجتين، وأنفاسه الساخنة، على بعد نؤارة، على
عنقى.

فَلِمَ يَدْعُونِي الطَّيِّبُ؟! لِمَ يَدْعُونِي، لِأَتُرِكَ هِيَامَ
العشب الرَّاعِشِ، وَرَقْصَةَ السَّنَابِلِ الْمُخْتَالَةِ، وَأَمْضِي إِلَيْهِ، أَفْتَحُ
صَدْرِي لِمَبْضَعِ جِرَاحَتِهِ، وَأَقِفُ فِي الْمَفْتَرَقِ، عَارِيَةً مِنْ رِبْعِ
الأَرْضِ . . . مِنَ الْأَوْرَاقِ . . . مِنَ الْأَدَبِ . . . عَارِيَةً، أَنْتَظِرُ قَدْرًا هُوَ
الْوَحِيدُ الَّذِي يَقْرَأُ حُرُوفَهُ؟! !

التفتُ إلى حسام، بغتة، وقد أوقف السيارة في طريق
ترابي :

— ماذا لو . . قطعوا نهدي ؟

عبس حسام . وضع كفه العريضة ، بقوة ، على فمي ، قاضما شفته السفلى ، ثم ، سحب يده ببطء ، واقتربت أنفاسه الساخنة ، لتهوي شفته الشهوانيتان على فمي ، تهيمان في وجهي وتسدلان جفني على غدي المجهول .

فجر اليوم التالي ، نطق المذيع ، فجأة ، موقظا ، معلنا
«درجتان تحت الصفر ، طقسنا اليوم» ، قبل أن تمتد يد حسام
وتسكته . فتحت عيني ، واستسلمت في الفجر الماطر للدعوة
الساخنة في يده الممتدة ، ربما للمرة الأخيرة ، تفتح أزرار منامتي ،
تمسك نهدي الراجف في كفيه .

أعددت قهوتي ، جهزت فطور علي وسناء . وتركت
الغناء الصباحي يغازل المطر ، وحسام في الحمام يحلق لحيته ويمسح
على وجهه عطره .

كنت أحوم . أتنقل بين علي وسناء . أركب أنغام الصباح
الراقصة . تستخفني الأنغام الخليجية . «يا طيب القلب ، وينك؟»
يطرب الجسد نشيطا . «مشتاق لك يا حياتي!» يدور مع
النغم . أكان يرقص؟ أم أصبح خفيفا ، كريشة ، نوتة أخرى ،
تنضاف إلى الأنغام؟!

حالة طارئة لا مفهومة تملكني .

فتحت المصاريع الخشبية ، رفعت الستائر المسدلة . السماء مثقلة بالغيوم ، والطقس الشتائي عاد حاد البرودة . جذبت المدفأة الكهربائية وأشعلتها للنغم الصباحي الراقص .
خرج حسام بوجهه الحليق وعطره الرجالي الرفيع .
نظراته إلي ، تتأرجح بين الفرحة لابتهاجي الصباحي النادر والدهشة والاستغراب .

— ما كل هذه الحيوية والنشاط؟!

طرت إليه أقبلة من الوجنتين ، أقبل علي قبل أن يتجه إلى معهده الثانوي بعد نجاحه ، أضمر سناء ، أحكم غلق المعاطف ، وأودعهما مع حسام عند الباب .

كانت الريح في عنفوانها ، والثلج بدأ يتناثر على الطريق ونوافذ مرفوعة الستائر ، يطل منها العالم الصباحي المثلج .
انتبهت للأنغام تنأى وتصمت أمام أخبار اليوم . أسرعت أسكت المذياع حتى لا يلوث سواد الأخبار نقاء لحظات الصفو النادرة .
وحيدة ، جلست إلى دفاتري ، وقد تلاشت خفة الطرب .
تلاشى الفرحة الطارئ الغريب .

حالة أخرى قادمة، واكتئاب صامت، على مهل، ينزل من جديد.. اكتئاب أخرس، يتمدد.. يتهدل.. ألاحظ أنني أكتب بالأسود.. أين ذهب القلم الأزرق المعتاد؟؟

خفت الشوق وتلاشى ، مع صمت أوتار نشوة الصباح . ولكنني
أقرر : سأعيده من جديد إلى العنقوان .

أنهض على عجل ، أملأ الركوة ماء ، وأشعل النار . قطعة سكر واحدة وملعقة فائضة من البن ، لقهوتي الثانية .

أعوذ أضغط على زر المذيع ، فقد انتهى موجز الأخبار .

ارتفع صوت فيروز بالغناء، داعية «شهرزاد» و «الأغاني عادت بنا..»، وسريعا ما تغير النغم، لتأتي المواويل الحلبية والإيقاع الطروب، يطرد الكآبة القادمة، ليصيح صوت صباح فخري عاليا، يعيدني مرة أخرى إلى الحافلة في آخر زيارة للحكيم.

قللت لهيايلا

حلوة ارويني

وعلى صـ _____ درك

فرجینہ سی

...علی ص _____ درک

فرجینے!

يتمایل الجسد مع الإيقاع ، والأصابع تنقر الهواء ، تقبل الحياة
الملفوفة في بياض الفجر الصباحي . شهية ولذيذة هي الحياة! كهذا
الصوت الصادح الطروب!

... يـا حـلـوة
ارويـنـي
وعـلـى صـدرك
فرجـيـنـي

شهية ولذيذة! والذكي ، الذكي من يبادر بقطف كل اللذات!

... يـا حـلـوة
ارويـنـي
يـوعـلـى
صـدرك فرجـيـنـي

الصدر الشامخ المرمري الشهوي يستجيب!

ينسدل عنه الرداء . تسبح الحلمتان الورديتان للسماء!

يأتيه . . بقلنسوة خضراء ، ومنديل أخضر . . يرفع اللثام على فمه ،
المشروط في يده . . يشق المرممر الجراج . . خيط دم يلوث
القفاز . . يقتطع ما تشاء الصورة . . ثم يحيط الجرح الغائر . ينزع

المنديل الدامي ، ويسقط اللثام ، ويعود ينهل من الحياة ، ويغازل
تفاح الأنوثة الشهوي !

.. من قال إنه مخطئ في استغلال كل لحظات الحياة؟!

يشدو صباح . يترقق صوته . يهيم منتشيا بحلاوة النغم .
قلت لها يا حلوة ارويني !!
يترنم صوتي معه بذبذبات الروح :
.. ارويني .. ارويني !!
.. !

ارويني .. يا متعة
الحياة! .. ارويني !!

قبل أن يغيب الغناء ، وقبل أن تغلق غرفة الجراحة على الجسد
المدان ، وتتحول عيون الرغبة والاشتها إلى عيون إشفاق وإنكار .

الصباح الأخير ، قبل موعد الجراح .

تعلو دقائق الساعة وتتسارع . ولكنني أتناسى الساعات الباقية والمجهول القادم وأشغلني بأدق لوازم البيت .

بدأت أعد حقيبتى : منامتي التي سألبس في المصحة ، الخف الذي سأنتعل ، الروب الذي سأرتديه والذي قضيت أمس ساعات في اختياره . . أي لون أشتري ؟ . . أي شكل ؟ . .

تفتقد كل الألوان التي أريد . يفتقد الدفء الصوفي الذي أبتغيه . أتشغل بقيس الموديلات المختلفة . بعضها يزيد من شحوب الوجه ، بعضها تنقصه الأناقة التي أريد .

يمل البائع ويتظاهر بالصبر .

يمل النهار ويبدأ بالهروب .

وتتعب الشوارع المبللة من أقدام المتجولين .

ولا يتعبني التنقل من مغارة إلى أخرى ، والتراجع مرات عن الاختيار .

يمضي الزمن ، وينتهي المساء المبدد بين المغازات والحلاقة التي لم أزرها من شهور .

هكذا! هكذا الآن يجب أن يبدد الزمن! . مع أناس لا يسألونك عن أحوالك، ولا يعرفون دواخلك. . يبدد في انشغالات نادرا ما تدعوك. ولكن، الآن، لكم تبدو تلك المشاغل الصغيرة التافهة، مباحج ممتعة، واستغلالا صائبا للحياة ولأوقات كان يمكن أن تتسع وتمتد إلى مهاوي الوعي الذابح لتفترسك كآبة غامرة مهلكة.

أخيرا، بددت الوقت، وأعددت كل شيء.

رتبت البيت وجهزت الحقيبة، والآن ينتظرني الحمام، قبل النوم. الليلة! سأعد الوليمة! سأصقل الجسد المنسي في دوامة العمل. سأعد الطين الملين المعطر بماء العطرشاء، أسكب ماء الزهر في المغطس. أوقد الجمر، وأرمي البخور والوشق والجاوي، وأدور بالكانون الزاهر في غرفة نومي. سأعيد للجسد طقوسه المنسية. . سألغي الليلة عقل الكاتبة المغرورة المتعالية، وأرميني لأحضان الأرض، الخافقة أشواقا وحنينا، وأسدّ سمعي على صدى عتابها الدفين.

*

*

*

حين دخلنا غرفة النوم وأوصدنا الباب، وعبد الوهاب يغني بيننا بصوته الدافئ الحاني يعزف على أوتار القلب، والمصباح

المحاذي يلقي بنوره الأحمر الخافت على الجسد الرياضي العاري
قربي ، شاهدت عينا الدكتور سليم ترقباني من بعيد ، داکنتي
الزرقه ، تحدقان بي ، ويداه تقتربان . . تجسان بدقه نهدي .
رفعت الغطاء بسرعة على جسدي . . تعلق بجسام ، مشبه
أظفري في ظهره . . همهم صوتي المرتعش في أذنه :
— أرجوك ! . . اطفئ المصباح !
وأخفيت وجهي في غاباته المتوحشة .

أي عنف تحمله هذا السرير ولم يشتعل ؟
أي حرائق احتمل ؟ . . وكيف ظلت جدران الغرفة على حالها ولم
تتناثر ؟ !
كان اغتياي ! . . أو اغتيالك !
أسناني تقطع أراضي الذكورة ، وشفاهك اللاهبة تحرق كل
المساحات . . تفتتها . . تنشرها .
والسرير تحول إلى حطب تتأكله نيران الحرقه والجنون .
كنا الإثنين ، في سرداب الزمن ، فريسة القلق والاختناق .
أنت تتمسك «بالعشاء المقدس الأخير» والمأدبة الهاربة ، وأنا أثار
من زمن ماض وزمن آت .

حين نهضت إلى الحمام، لم تسأل : «ما بك؟!»

أجلت السؤال للصباح، إن طلع :

ما للعنف المجنون يعصف بي و بك؟! . . ما للجسد يمسي مجنون
الافتراس، قاطعا، ممزقا كل ما يعترض سبيله على السرير، ناسيا
أن اللذات لا تستطاب إلا على مهل؟!!

أهو إنذار الصور المرعبة المخفية في أدراجي؟ وقرار الحكيم
ببطلان كل المشاريع، وكتابة الرواية القادمة — لا على الورق —
بل على جسدي؟

أم هي الكلمة المختنقة في الحلق؟ وصمتنا المقهور أمام المجهول،
يستبدل اللغة، ويتحول في الغرفة المغلقة، إلى حمم يفجرها بركان
ثائر مجنون؟

ساعة الصّفة

اختفى العالم الخارجي وغاب ضياء النهار الطالع عن الطابق السفلي بالمصحة . غابت الأطياف البيضاء السريعة في الممر ، وانغلق علينا الباب . أنا ، على كرسي الانتظار ، وطبيب الأشعة ، بقامته الرفيعة ووجهه الوسيم ، تحت أنبوب النيون ، واقفا ، رافعا الصور للضوء ، متأملا حقول التكلس الثلاث في نفس الثدي .

بابتسامة خاطفة استدار . جر مقعده المتحرك ، جلس قبالي ، لامست ركبته ركبتني . دعا الممرضة بإبرة التخدير . طلب المَعذرة إن سبب التخدير الموضعي بعض الألم . لقد بدأ أعدادي لمشرط الجراح المنتظر في الطابق الأعلى . في صدري ، أمسك الحمامة المرتعبة ، بين يديه ، وأخذ يرشق بالإبر ، محمدا مكان الذبح ، لزميله الجراح . . تتوالى الإبر ، براقعة واخزة مرشوقة في بياض الصدر . تتوالى السهام ، لماعة ، مغروسة في سواد الظهر . تتتابع قطرات الدم ، تلوث البياض . تشعل السواد .

رباه! . . نفس المشهد! . . هو ذا يعود!!
. . كيف يحوّل القلم الخيال إلى حقيقة، والأحلام إلى نبوءات؟!
كيف يصبح الفن صوتاً إلهياً يخط كتاب الوجود؟!
نفس المشهد، كنت أرسمه بيدي، منذ يومين، ولكن، في ساحة
الكوريدو بغرناطة.
السهم مرشوقة في ظهر الحيوان الأسود الجريح، ودمه، قانياً،
يسيل، يتقاطر على أرض الملعب.
كان المشهد الأخير من قصة غرناطة، مشهد الثور الإسباني في
ساحة الكوريدو. طويت بعدها الأوراق وأسعرت إلى مكتب
البريد، أنقذ القصة لتطير إلى «مجلة الشرق»، قبل دخولي عالم
الغياب.

لم أكن أتصور أن يعود المشهد بعد يومين، لا في الملعب
الإسباني، بل في ملعب آخر، وعلى جسد آخر. . هو
جسدي! . . وأن تعود السهم مرشوقة، لا في ظهر الحيوان، ولكن
في صدري! وقطرات الدم تسيل على جسدي. . تنقط
البياض. . تتقاطر. . بين قدمي، وهم حولي يصورون

محتفلين . . ظهر الثور الأسود ينزف ، وصدري في بياضه ، ينقط
دما .

الفارس يشرق من بعيد سيوفه ، والطبيب يغرز سهامه ، ودمي
يتقاطر على أثوابي ، وعلى الأرض .
والجمهور يهتف : أولا ! . . أولا ! . . يسقط الثور في هزيمته وأسقط
أنا ، في دمي !

وقتها ، أمام دمي ، كانا يتغازلان . خصلات شعر الممرضة
المساعدة الطليق يداعب خط الطبيب المنحني على صدري العاري
وصوته يهمس ، ساخنا ، في أذنها القريبة المعطرة ، وعيناه على
الحمامة الراجفة في يديه ، تحت وخزات الإبر :
— حاذري ! . . حاذري ! . . إن قلبي رهيف !
بينما يده تمسح بالقطن دمي .
ظل الجمهور يهتف ، في أرجاء الملعب الدائري في ساحة
الكوريدو ، لا مباليا بنزفنا .
..... أولا ! . . أولا ! . . أولا !

*

*

*

دفعوا بي النقالة في الممر البارد الطويل ، الإبر مرشوقة في الصدر ، والرداء الوحيد البالي الخضرة يلفني ، مع غطاء قديم ألقى على نصفي . أمام البوابة البلورية لغرفة العمليات ، تركوني ومضوا . من بعيد ، كانت الأطياف البيضاء تتسارع ، منشغلة ، في الرواق الكئيب .

هبت موجات باردة ، قادمة من مكيفات خفية . هتفت مرتجفة : — دثروني ! . . رجاء ! . . أشعر بالبرد ! أتت الممرضة بغطاء صوفي ، وضعته على صدري . عادوا يدفعون بي النقالة ، فقد انفتح الباب .

سريعا ، رفعوني على طاولة العمليات . . ظل البرد يجمد رجلي . حاولت ، محرقة أصابع رجلي الثلجتين ، أن ألف بهما الغطاء ، فيدي معلقة إلى قارورة السيروم ، والأخرى يشدها الحزام الإلكتروني يتابع دقات القلب . .

وقتها ، في الضوء المنهمر من «النيون» ، خلف البلور الفاصل بين غرفتي العمليات ، لمحت الدكتور سليم ، الجراح ، لأول مرة ، بلباس العمل الرسمي ، الطاقة الخضراء على رأسه واليدان المقفرتان مرفوعتان ، لازالتا ملوثتين بالدم . لقد انتهت عملية الغرفة الأولى ، وها هو قادم إلي ، ملاطفا ، ودودا ، كعادته ،

يسبقه صوته الحيوي الواثق ، مخاطبا أخصائي التبنيج الشاب
الواقف عند رأسي :

— حاذروا على كاتبتنا الجميلة ، لتكتب لنا المزيد!

ابتسم الحكيم المبنج ، وانحنى علي يدعوني للحديث ، مراقبا مدى
سريان المخدر في دمي :

— ما عنوان كتابك الأخير؟

بصوت خافت ، بدأ يسبح في السكون الوليد ، لا أدري لِمَ قلت :
العراء!

أخذت الأصوات تبتعد وتناهى . . ضاع صوت
الطبيب . . اختفت دوائر الضوء المسلطة علي وامتدت ظلمة
غامرة .

فاصل

هاتوا المياه الدافئة!

أحضروا المناشف والمحكة والصابون!

هيئوا ماء الياسمين والعطور!

ناولوني أجمل وشاح أبيض لها!

وأغلقوا علينا الأبواب!

قلت لسلمى : — مهلا يا سلمى ! لا تركيني هذا الأوان!

خفضت سلمى رأسها، وحزن الأرض يملأ عينيها الدامعتين،
ومضت ملبية نداء المرأة، داعية النساء للخروج.

انفتح الباب على كامله، وأدخل الرجال المغسل إلى غرفتي.

صرخت سناء باكية وأمسكت بقوة بيدي، رافضة الخروج.

قلت لها : — صغيرتي ! لا تفزعني ! سأستحم قبل الرحيل،

وسأعود إليك، نقية، طاهرة، لتمنحيني قبلتك الأخيرة.

لم تسمعني سناء، ولاذت بحضن سلمى. انحنت سلمى. حملتها

بين ذراعيها. كفكفت دموعها، ومضت بها خارجة، تمسح على

رأسها الصغير المنهك وتسوي شعرها الحريري المنسي هذا
الصباح ، بعيدا عن طقوس الرحيل . . .

عادت سلمى وكأنها أدركت أخيرا ندائي .

— سأساعدك يا خالة! . . هي ذي أوعية الماء ساخنة! وهاك
الوشاح! . . أحب وشاح لها!

. . وهفهم الوشاح ، انسكبت خيوط الحرير البيضاء تعيدني إلى
جنان الأندلس ، والعجرية ، على ربوة ، أمام قصر الحمراء ، تلوح
بشالاتها المطرزة ، عارضة ، مادحة ، ولباسها المجنح الأطراف
يرقص مع شالاتها في الريح .

أمامي ، رفعت عاليا ، للشمس ، شالا مشبكا ، ناصع البياض ، رن
صوتها الفضي ، مادحا ، مغريا بالشراء :

— شال الأميرة! . . شال الأميرة . . . شال الأميرة . . عائشة!

وانسكبت خيوط الشال الحريرية الطويلة ، تحت الشمس ، براقه
رقراقة بدمع أم آخر الأمراء النفيين التاركين الديار .

أغراني الشال ، وراقني ذكاء العجرية البائعة .

أخذت الشال . نقدتها ثمنه ، وألقيت وشاح الذكرى على كتفي .

*

*

*

أخذت سلمى تسكب ، على جسدي ، مع دموعها ،
الماء . . ظل الماء ينسكب على جسدي البارد المستسلم لخشب
المغسل العتيق والوشاح الأبيض مع الأكفان ، يرمقني منتظرا على
السريـر ، وخيوطه تسترسل على الثرى ، تروي قصة الأرض مع
آخر العشاق الراحلين .

مضيت تاركة لهما جسدي .

خارج الغرفة الموصدة ، كانوا ينتظرون صامتين واجمين ، وقد ارتفع
الترتيل .

شاهدت حسام يجلس ، منهد الكتفين ، مطرقا إلى الأرض ، قريبا
من غسان . بعد أن وضع بين يديه ظرفا كبيرا خط عليه قلـمي : إلى
غسان سلمان .

. . . لم غسان الذي ائتمنته علي؟! أهو تكفير عن نسيان؟

أم إيمان بأنه الوحيد القادر على قراءة أوجاع الروح وعذابات
الجسد؟

مازال الماء ينسكب على جسدي ، والمطر في الخارج ينهمر
مدرارا على المدينة ، والبحر الصاخب يرسل صدى هديره إلى
البيت المفتوح للمعزين .

أهي الصدفة وحدها، جمعتها من جديد، مع ذكريات الفجيعة والموت، وقد أتيت مفاجئة، قاهرة البهاء، لتعيدني، معك، إلى الضاحية التونسية التي نامت بسلام، بعيدا عن الشرق المشتعل، ونهضت فزعة على صوت القنابل والصواريخ تلقيها طائرات ف٦، القادمة من بعد ٢٥٠٠ كم، من قواعد إسرائيل؟ أم هو قدر ساخر يؤلف قصة الجسد الإنساني المهذور، بكلماتك أنت، وبقلمك المغموس في حبر دمي؟

*

*

*

كان الصباح ينهض مشرقا، هادئا، كعادته، في الضاحية الصغيرة الوادعة. المنازل البيضاء والجنائن المشجرة الخضراء، تغتسل بضياء الشمس. مذياع يرسل أغانيه الصباحية للطريق. السماء صحو وقطار برج السدرية يتهدى قادمًا داعيا صفيره المسافرين إلى العاصمة. الأطفال بميدعاتهم الوردية والسماوية يقطعون الطريق، مرددين أناشيدهم المدرسية، ورنين جرس المدرسة يدعو أطفال الحصّة الأولى للخروج.

الساعة العاشرة و ١٠ دق صبيحة ١ تشرين الأول ١٩٨٥
سرت مترجلا إلى مكتب الإعلام الفلسطيني.

فجأة شق أزيز طائرات حربية السماء، وارتجت الأرض . مرقت الطائرات شديدة الانخفاض والسرعة إلى الجبل القريب . تفجر الدخان كثيفا . اصّاعد يحجب الرؤية .

صرخت عاليا بمن حولي في الطريق : — اركضوا بعيدا عن البناء ! إنها غارة ! . . إنها غارة ! . . نحن المستهدفون ! . . إنها غارة ! عدوت طائرا صوب البحر . . في لحظات ، عادت الطائرات من جبل بوقرنين ، في نصف دائرة عمودية ، تلقي قذائفها وصواريخها على البنايات والشاطىء . ألقيتني في البحر ، القذائف تتهاطل حوالي ، والدخان يصاعد كثيفا مصفرا من الساحل . . فجأة ، أحسست نارا تشتعل في رجلي اللائذة بأعماق البحر . وتدفق جدول دم ، انتشر حولي في الماء . لقد أصابتني إحدى الشظايا . سريعا ، اختفت الطائرات . . وعلت أصوات الصراخ والعويل ، تمزّق قلب الصباح المدهش .

رغما عني ، خرجت من البحر إلى الشاطىء ، وألم ناري يلهب رجلي . . على الرمل المبتل ، اكتشفت أنني تركت في مياه البحر ، أصابع قدمي اليمنى ، قطعها القصف الإسرائيلي الغادر ، وابتلعها البحر التونسي .

على الشاطئ، كان فتى جريح يصرخ مستنجدا، حواليه
تناثرت جثث الشباب . . تحاملت على وجعي ، وحملت الفتى
المصاب . . عدت أجر رجلي الدامية ، وأمشي به على الخراب .
. . حفر هائلة مفتوحة ابتلعت البنايات . . اختفى مقر قيادة الأركان
تحت القصف . . دمر مقر الفرقة ١٧ . . خرب مكتب الإعلام الذي
كنت ماضيا إليه ، مع مقر القيادة العامة ، كما خربت بنايات
لعائلات تونسية آمنة .

وأعلن الخراب : ملاجئنا المؤقتة ، دوما ، مهاوي مفتوحة للموت .
على الطريق ، تبعثرت محافظ أطفال . . تناثرت الكراريس
والكتب . . احترق نصف قصة أطفال ملونة ، تركت بقاياها شاهدا
على الرصيف المخرب . كان طفلان صغيران ، بميدعتي المدرسة ،
مضرجين بدمهما ، والعيون الزجاجية الجامدة ، مفتوحة بالدهشة
والألم ، تسأل السماء : بأي ذنب قتلت ؟
تعالى النداءات والاستغااثات . . وشقت الفضاء منبهات سيارات
الإسعاف . . التقطتنا إحداها ، وانطلقت بنا ، يشق عويلها الآفاق .
وزع الضحايا والجرحى على المستشفيات : «الحبيب ثامر» ،
«عزيزة عثمانة» ، و «مستشفى سليمان» .

في الغرفة البيضاء بالمستشفى ، علمت باستشهاد رفاق الأمس :
صلاح خلف ، هایل عبد الحمید . . معاً ، سهرنا في بيت الضابط
جمال هوارى ، نتحدث ونحرق دخان النرجيلة وننفثه في وجه عالم
متواطئ . كان الجمر الزاهر حتى منتصف الليل يروي حريق
الروح . في الصباح ، أضحى دخان الدمار يعلن حريق الجسد ،
ورفاق المساء الذين سبقوني إلى المكتب تحولوا إلى برادات الموتى .
استشهد جمال هوارى الذي تزوج حديثاً . سيارته التي اقتناها قبل
يوم واحد ، تفحمت ولم تستكمل أوراقها بعد .

قُتل زهر الشباب علي عزعوز ، طالب الجامعة التونسية .
قَبْلَ أسبوع فقط مضينا معاً ، ليرسم بكلية الحقوق . كان يترقب
بشوق يومه الجامعي الأول بتونس . ولكنه لم يلحق القطار ، وقتل
قبل الوصول .

استشهد أحمد ، الفتى الرائع العنفوان ، الساخر دوما حتى من
نفسه . خاتل الموت في بيروت ، بعد أن ظل ثلاثة أيام تحت الردم
حياً ، في حين قتل كل سكان العمارة التي قصفها الطيران
الإسرائيلي . نجا هناك ، وتفجر الجسد في البلد الأمين . وجد جسده
أشلاء تحت الركام .

تجاوز عدد الشهداء المائة وخمسين بين تونسيين وفلسطينيين ، عدا
مئات الجرحى .

على بياض طاولة سريري بالمستشفى ، تناثرت الصحف
القادمة مع رفاقي الزائرين .

«اليهودي عندما يذبح فلسطينيا أو عربيا ، يتخلص من
مخاوفه ويصبح جديرا بحمل رمز الذكورة»

ذكرت إحدى الصحف الصهيونية ، بعد الغارة ، بأقوال زعيمها
الأول ميناحيم بيغن .

«لا ينبغي أن تأخذكم بهم شفقة طالما أننا بعد لم نقض على ما
يسمى بالحضارة العربية التي سوف نبني حضارتنا الخاصة على
أنقاضها»

«صرح الأخادي صوفي السفير الإسرائيلي بباريس أن تونس
تتحمل مسؤولية وجود منظمة التحرير على أرضها»

وأعلن إسحاق رابين وزير الحرب الإسرائيلي ، أنه تم إعلام الولايات المتحدة بالغارة مسبقا .

الأمم المتحدة تحتفل بذكرى تأسيسها الأربعين !!!

الأسطول الأمريكي موجود بالمياه الإقليمية ، قريبا من تونس لحماية بعض الأوطان العربية من جيرانها

انتبهت إليك تتوقفين أمام قصاصات الصحف المعلقة
تقرئين «بيان الوزير الأول التونسي محمد مزالي»

أتوجه إلى المجتمع الدولي ، هذه الأيام التي يحتفل فيها بالذكرى الأربعين لتأسيس منظمة الأمم المتحدة التي قامت للحفاظ على السلم والأمن الدوليين ، فأناشده بالوقوف في وجه الطغيان ، وأدين بشدة هذا العدوان السافر وهذه الجريمة الشنعاء .

تبعتك خطاي ، بذكرى الوجد والفقدان الذي انتعله في حداثي والذي امتد معلنا في كامل جسدي ، ولكنك مضيت ، لا مبالية ،

برأسك المرفوع وصمتك المهيب ، تقرئين ما علق على الجدران ،
وتتوقفين عند الفقرة الأخيرة من بيان منظمة التحرير .

. إن منظمة التحرير الفلسطينية وهي تودع هؤلاء الشهداء

الأبرار ، لتعاهد شعبنا الفلسطيني والتونسي وجماهير أمتنا العربية ،
أن هذه الجريمة الإرهابية الإسرائيلية لن تزيدنا إلا إصرارا على
متابعة طريق الجهاد حتى النصر . ولعلم الصهاينة وحماتهم أنهم لن
يفلتوا من العقاب وأن دم شهدائنا الأبرار لن يذهب هدرا .

المجد والخلود لشهدائنا وإنها لثور حتى النصر .

«ثورة حتى النصر!» ترددت بين شفتيك الكلمات وعيناك ترنوان
إلي في مزيج من الحيرة والأسى والغضب ، تسألان عن مآل الثورة
وميعاد النصر .

بخطى ويّدة ، عدت تتابعين ما التقطت العدسات من صور
الشهداء وآثار القصف .

قلت لك وقد ومض مشهد سريالي في الذاكرة :

— لقد أفلت من عدسة المصورين مشهد قارورة الغاز الطائرة
لأحد الباعة المتجولين . كان يحرك الذرة على ناره الهادئة حين

انطلقت الغارة. من قوة الانفجار، طارت قارورة الغاز في السماء إلى علو ٢٠٠م وهوت. لم تنفجر.

سقطت في قلب الشارع وانحفرت في الأرض. كانت أرحم بصاحبها الذي مزقته شظايا الغارة القادمة من أقصى الشرق.

*

*

*

كنا نقرب من مدخل قاعة العرض، من الباب المفتوح، برد ما كان يتسرب إلى فضاء القاعة شبه الخالية آخر النهار، يذكرني بحريفي القادم، حين أطل وجه هدى والشال الفلسطيني يلف الجيد. بدا تحت الفانوس الحائطي المضاء، نابضا بالحياة، مشعا بشبابه الغض وابتسامته المتحدية.

هدى شعـلان عـروس البحر وشهيدة الغارة

خطت الحروف السوداء العريضة تحت الصورة المكبرة . حذوها
علّق قصيد «عروس البحر» لنهى تدرس .
التفت إليّ ، وضج السؤال في سواد عينيك الأسر :
— أتعرفها ؟

وأقبلت هدى ، سلية الشهداء . طفلة بيوت التنك في
مخيمات لبنان ، بلسم جراح الشباب في خنادق الحرب . وقفت
بجانبي ، يداها على حاجز الباخرة المعدني ، بالبدلة المرقطة الداكنة
للفدائيين .
— أخيرا ! أرض عليسة !

كانت الجماهير على رصيف الميناء ، في الشوارع والطرق
والسطوح تستقبل الباخرة القادمة بالمقاتلين المهجرين من بيروت ،
والطائرات التونسية تحوم فوقنا مرحة .
رفعت هدى رأسها إلى السماء هنيئة ، ثم عاد وجهها يلتفت إلينا
بحيرة السؤال : — أين كانت طائرات العرب ونحن في الخنادق
محاصرون ؟ !

رغم الدمع الذي ائتلق وفاض في العينين الكحيلتين ، عادت هدى
تبتسم وترفع يديها بالوشاح الفلسطيني محمية المواطنين .

*

*

*

في الملجأ الجديد بحمام الشط ، بعد شهور الحرب
والحصار ، كان أول فرح تحييه هدى ، وأول عرس فلسطيني على
شاطئ البحر التونسي ، فقد خرج الحبيب من سجنه وأقبل من
الشرق ، لتزف إليه هدى ، ولنشرب نخب ابنة الشهيد شعلان ،
عروس الشط . حضر الزفاف أبو عمار . رقص الشباب وأنشدوا
للأرض والفرح . ولكن ، لم يدم فرح هدى . بعد يومين فقط ،
اجتاحت المخيمات في لبنان ، وكانت مجزرة صبرا وشاتيلا .
قتل من تركنا من أهالينا . أكثر من ١٥٠٠ شهيد من النساء
والأطفال والفتيان والشيخوخ .

لم يخفف غير الوليد الذي هل بعد عام ، أحزان هدى .
عاد الأمل يزهر في عينيها متحديا . وفي صبيحة ١ تشرين الأول ،
هز الشوق هدى إلى أمها البعيدة في لبنان . بعد غياب أسبوع من
العمل خرجت هدى إلى مكتب الإعلام . أرضعت صغيرها قبل
الخروج . هدهدته وتركته نائما في مهده .

رفعت هدى سماعة الهاتف ، دعت أمها ولكن الخط انقطع . أزيز الطائرات المفاجئ طغى على كل صوت وارتجت الأرض ، صرخ شكيب بشباب المكتب .

— اركضوا! . . إلى النافذة!

طار جهاد إلى النافذة يفتح المصراعين ، قفز إلى الأرض لتنقذه حفرة مهمة خارج السور .

نادت الأم البعيدة : — هدى! . . هدى! . .

تعلق شكيب بالنافذة حين انهمرت الصواريخ ، تداعى المبنى على من فيه ، وشكيب الذي دل على منفذ النجاة ، تركته النجاة ممزقا إلى إطار النافذة المكسور ، يده تشد يد هدى التي قتلت تحت البناء المنهار .

ظل خيط الهاتف يتدلى بالسماعة . والأم المفجوعة هناك ، لا تنفك تصرخ منادية هدى .

في ربيعها الثاني والعشرين ، دفنت هدى مع شهداء الغارة ، في سفح الجبل الذي حامت حوله الطائرات المغيرة ، في مقبرة حمام الأنف . من يومها أصبحت مقبرة حمام الأنف تدعى «مقبرة الشهداء» .

تقدم جهاد، محمود، منصور، وإبراهيم، بعض الناجين من الغارة. معا، وقفنا عند الباب. أضواء المساء في الطريق بدأت تلتمع بين الأشجار. هناك، في انعكاسة ضوئها الشاحب على وجهك، شاهدت التماعه حزن دفين يسكن سعة عينيك بينما عادت أسئلة متداخلة تضج داخلي.

ما الذي أتى بك إلى هنا؟

ما الذي عاد بك إلي؟ إلى ذاكرة الموت والدمار، وأنا الذي أفر من خرابي إليك، علي أقف معك على أرض من يقين؟!

هبت نسمة باردة من غروب يومنا. ارتفعت يدك ترفع خصلات ماجت وتهدلت على الجبين.

وشعت نجوم خاتمك من نعومة أصابعك الرشيقة. أعادتني طفلا ضائعا في المتاهات، ينتظر الليل، لتمسح دموعه المكابرة راحتك وتحضنه ذراعاك.

مع الرفاق، كتمت أصوات الطفل الشقي، الضاجة في الأعماق ورفعت رأس الرجولة الصامدة. ولكن، وأنت تمدين يدك للوداع، تشبثت بيدك، محاولا إبقاءك بدعوة توقعت ضعفك أمامها: تناول كوب شاي بالكركدن، على عادة أهالي فلسطين، في مقهى أريحا القريب.

وأنا أشهد ثغرك يفتر عن ابتسامة القبول وجسدك المتغنج
الأسر الرافل في شبابه ، يخطو بجانبه موليا ظهره لصور الأجساد
التي خربها السرطان الجديد ، لا أدري ، لم قلت لك في صمتي ،
مستعيرا قولة الكاتب اليوناني كازنتزاكيس ، و أنا أتوهج تحت هالة
عنفوانك المضيء الطريق وأشد يدك : «أحبب جسديك ، ذلك أنك
تقاتل به وتحول المادة إلى روح» .

ولكن بغنج فطريّ ، جذبت يدك من ضمّ يدي ، تكسرين
شوق ذراعي إلى دفئك . وقتها ، سمعت صوتك بين شفاهك
المطبقة الهاربة : «أنا لا أقاتل ، إلا بسلاح الروح!»

حين أطفئت أضواء القاعة على أرواح الشهداء وأغلقت
الأبواب ، قادتنا خطانا مع صمتنا الهادر إلى مقهى أريحا . هناك كان
مجلس أريحا يشعل نارجيلات رواده ، ويبعث حرائق الجمر إلى
رياح الخريف .

تعصف الريح بالذاكرة. تدعو غسان، ومعرض الذكرى
والشهداء وجلسة مقهى أريحا. هناك، مضينا معا في بداية ليل
شفيف الحزن. لأول مرة، قبلت دعوة غسان، لأسير معه تحت
أشجار مقهى الشعراء والعشاق الهادئ.

يوم لقائنا الأول في معرض الكتاب، تلفحت بأردية
التكتم، تظاهرت باللامبالاة. كبريائي، كان أكبر من فرحتي بلقاء
الشاعر الذي عشقت، منذ قراءة ديوانه الأول. ليس قصيدة ما
يكتب، بل رواية أسرة فصولها قصائد، نار الغربة فيها كاوية.
فكرت يوما: سأستعير من لهب كلماته نارا تذكى مواعد روايتي.
سأجعل بطلي يتكلم بلسانه.

لم أتوقع أن تجمعنا الصدفة وأن تمتد يده إلي حارقة الرغبات.
لم يدر أن يدي تصافح في يده الأرض السلبية المقدسة، لا جسد
الرجل الوحيد المتعطش للرواء.

ومع ذلك، في ظلال الضوء الخافت السري، بمقهى
أريحا، وجدتهني أسأل، في اعتراف ضممني بإعجابي :
— هل تسمح بأن أقطف من ديوانك الأخير أبياتا لروايتي ؟
اشتعل وميض فرح في عينيه وهو يقول :
— كل كلماتي لك ! . لا تنسي أنك أخذت ما هو أعلى من
الكلمات .

تجاهلت كلماته الأخيرة، وبصدق حقيقي، شددت يده
ممتنة شاكرة .

سألني وقتها، بنبرة ودودة :

— ألا ترين أننا يمكن أن نكتب يوما رواية معا ؟

قلت مستنكرة وأنا أسحب يدي من يده :

— ألا تؤمن بنرجسية الفنان ؟ بفردانية الكتابة ؟

الأدب تجربة خاصة لا يشترك فيها اثنان وإلا ضاعت التجربة .

لعلها تجربة صوفية، يصح فيها قول الصوفي محمد بن عجيبة
الحسني : « اطلب الحق من ذاتك لذاتك، تجد الحق أقرب إليك من
ذاتك » .

ألسنا ، في كتابتنا ، نبحث عن الحق في أعماقنا ، عن النور الذي لا
نجدّه على الأرض ونظل نبحت عنه ، وحيدين ، في أغوار الذات ،
علنا نقطف منه قبسا يضيء دجى الحاضر الإنساني المنهار؟! .

*

*

*

هبت ريح شمالية ندية أذكت الجمر في نارجيلات الرواد
القلائل ، تألقت النار في الليل الخريفي تذكرني بأوان الرحيل .

أكان سؤال غسان ذاك المساء — عن كتابة مشتركة لتشابه
أسلوبينا كما قال نبوءة ساخرة من قناعات لم تصدم أمام جسد
يستفيق ويستبد ؟ أم كان البذرة التي ألقاها في أراضي لتغذى من
جراح الذات ، ولتطل يوما بزهر الألم ، داعية غسان ، ليشاركني
كتابة رواية حياة لم تكتمل ؟

شتات أوراق

ورقة أولى :

سؤال اخترق اللحظات الأخيرة قبل الغياب ، وأنا على
طاولة العمليات ، وعين الضوء الرهيبة مدلاة علي :
أتكون الكتابة هي النبوءة التي نحمل ونحن ندعي اللعب بالكلمات
وبناء عالم من خيالاتنا وجنوننا ، وإذا جرائم الأدب جرائم حقيقية
يلوث دمها أيدينا ؟
أيمكن أن أجرم مرتين ؟ مرة على الورق ، ومرة على أرض الحقيقة
؟ ومع من . . ؟ مع جسدي . . ؟
نفس العين الكبيرة الساطعة فوقي ، بعثها الخيال ورسمها
القلم في تلك القصة التي كتبت منذ سنين .
العين الملتهبة . . القفازات الدامية . . والجسد العاري المدان !

أكانت نبوءة أخرى ، يرسمها القلم ، لتعود نفس العين ،
الآن ، ساطعة على أرض الحقيقة ، تشق سهامها تضاريس
الجسد؟!

ورقة ثانية :

أصداء تمضي . . أصوات تقترب . وضوء ثاقب يتسلل إلى
عيني . . سمعت صوت حسام قريبا . بصعوبة ورفعت جفني
الثقلين . . شاهدتهم يحيطون بي . . عاد جفناي ثقيلين ينسدلان
على ظلمة غامرة . . ناداني صوت الممرضة الرفيع . . عدت أفتح
عيني من جديد ، رأسي ثقيل مصدع . . لمحت سلمى تنحني علي ،
بعينين محمرتين ، تلثم جيني . . امتدت إلي يد حسام . كان واقفا
قربي . وقتها ، لمحت يدي المعلقة إلى قارورة السيروم . بدأت
أعي . . لقد خرجت من غرفة العمليات .

تحركت يدي الأخرى ، ببطء ، مرت أصابعي المترددة على
ضمادة كبيرة مستوية على الجانب المصاب .

أمسك حسام بيدي ، رفعها محاذرا ، لتستكين بين يديه . . هربت
عيونهم من السؤال المعلق على شفتي .

— الحمد لله . . . إنك بخير! . . لقد نجوت من الخطر!

لم أعرف الخبر إلا عند قدوم الدكتور سليم .

لقد بتر الحكيم نهدي المصاب .

في لحظة صحو فاجع ، تساءلت :

— تراني أحلم؟؟ . . قطع السكين . . الموسى . .؟؟

سرعان ما عدت أغرق وأطفو . . أغرق في غمامة من تأثير

التبنيج . . عادت الوجوه أمامي مائعة ، تظهر وتغيب تحت جفنيّ

الثقلين والكلمات أمست بعيدة ، غائمة . . صدى لكهوف بدائية

تصفرّ فيها الريح .

قبل الخروج ، التفت إلي مشجعا ، وقد ارتفع صوته ، وعاد واضحا

:

— استغلي الفرصة لترتاحي ، ولتقطفي أفكارا جديدة للكتابة!

. . كنت عاجزة عن الجواب .

لم أقل له أن الكتابة جريمتي ووجعي! . . أفيوني وجنوني!

انتصاري وهزيمتي! . . عدت أستنجد بالغياب .

ورقة ثالثة :

عدت أخيرا إلى الدار .

أغلقت باب حجرتي علي بالمفتاح ، واجهت المرأة ، فتحت أزرار
المنامة ، حدقت في الصدر المكابر . . بدت ، على اليسار ، الضمادة
المتينة كثيفة ، قاسية الصفرة . . لقد عوضت التفاح المقتطع .

أطل نهدي الوحيد من المنامة المشرعة ، في بياضه ، حاملا يتمه بذل
ساحق . . فوق الصدر المكشوف ، عاد وجه الصورة المعلقة في مركز
التصوير ، المرأة العارية المقطوعة الذراع ، شارد النظرات ، متشحا
بجزنه ، يتصدر المرأة .

في غرفتي المغلقة ، وحيدة ، بمنامتي المفتوحة على الصدر ،
فاض الحزن والوهن ، ذلا ودمعا أغرق المرأة .

ورقة رابعة :

كم من يوم مرّ وأنا ملازمة فراشي ؟

ناحية القلب ، عاد الوحز يثقب غمامة الدواء المخدر للوجع ،
يعيدني إلى الضمادة القاسية المشدودة على الجرح ، يزيد صحوي
الفاجع على وحدتي ، رغم وجوههم المتوالية تتفقدي ، رغم هالة
الحنان والمحبة التي أحاطوني بها منذ عودتي .

عند خروجهم ، أنطفئ وأغوص في وحدة شاسعة ، مائعة ، بلا
قرار .

فقط ، ذاك الوجه الصبوح الضاحك يبقى معي ، يطل
علي من الصورة ، في أبهى عنفوان ، لا مباليا .

ها هي دجلة ! تستلم الجائزة : جائزة الجريمة ! تشرب أنخابها في
المسرح المحتفل وتنسى قتلها في وحدتهم الأخيرة ، بعد أن دفنهم
بين الأوراق .

. . الكتابة ! الجريمة الوحيدة الناجية من العقاب والمكلفة — عند
إتقانها — بجائزة الخلق .

تلتقي عيناى بعينيها النفاذتين ، تنزلان مع الجيد المرمي الطويل إلى
أعلى الصدر الباذخ ، ناضجا ، شاخا ، في استدارة الفستان
الواسعة .

يا عنفوان الفرح والجموح ! . . يا دجلة الماضي ! رفقا ! . .
أولى الظهر للصورة ، وألم قاهر يغمر شتات الوعي ، ودمع التفاح
المقطوع ، يجري ، دما حارقا .

*

*

*

سألت الطبيب وهو يغير الضمادة — لأول مرة —
وعيناى تهربان إلى السماء ، تتحاشيان اكتشاف الخراب .

— كم يمهلني الزمن ؟

ارتفعت يده بالمقص وأجاب بصوت حازم :

— أنت الآن بحير! لقد قطعت كل الأجزاء المشبوهة . ستتناولين الدواء لستين . قد يؤثر — بنسبة ضعيفة — على الرحم ولكنه ضروري للشفاء التام!

أضاف بعدها : — أأست مؤمنة ؟

حدقت في عينيه . . . عن أيّ إيمان يتحدث ؟! . . أيّ إيمان سيغير منظر اللحم المشقوق ؟! . . أيّ إيمان سيغيّر جنون الخلايا التي أخذت تشذ ساخرة من عوالم الروح ؟ خلايا تمتد تنهش كل زهور العنفوان ، تعيدني إلى حقيقتي البشرية : تراب! . . وطن!
ومع ذلك ، عدت أسأل :

— متى يمكنني الاغتسال ؟

* * *

تتوالى الأسئلة . تظل معلقة بلا جواب . فقط ، يطل الأرق ، جوابا جاهزا ، يستبد بحاجتي الوحيدة : الغياب . يقف بي ، ساخرا ، أمام اللوحة التي تقابلني ، في الردهة ، كل صباح ، بألوان الفجر الطالع على ليل الفنان التشكيلي الذي رسمها : «لوحة الأرق» . اشتريتها معجبة بتدرجات الزرقة والسواد فيها ، تطل من نافذة الفنان الساهر ، المشرعة على السماء وعلى أعالي النخلة الوحيدة ، مسحورة بكلمة «الأرق» .

الآن، أرق الفنان الجميل الخلاق، يُسقط جماله وقدسيته
وسحره. يتحول شيطانا شريرا كافرا، يثقب
مقلتي.. أتقلب.. أرفع الغطاء على وجهي.. أعود أستنجد
بكتاب أو نغم.. دون جدوى!.. يظل الأرق، ساخرا، يعلقني
من أشفاري، غارسا سهام الوجع الثاقب قاع الروح.
فيما مضى، لم أكن أرفض الألم. بقدر ما يأخذ، كان
يعطيني قصصا وحيوات ودنى.
ولكن، الآن، ما الذي يعطيني غير كأس مرارة خاوية، وخجلا
فادحا من جسد هجين؟

ورقة خامسة :

أجدني، أحيانا، في غرفة الجلوس، أمام حسام. تصمت
الشفاه، وتمتد مساحات الصمت بيننا. ينكمش كل منا في زاويته،
متظاهرا بالانشغال بكتاب أو جريدة، يغرق الصحو في استسلام
بائس، منكرا خيانة الزمن.
.. الخيانة!.. لطالما كرهت وترفعت عنها طويلا، وما كنت أعرف
أنها في دمي، وإذا أنا الخائنة الأولى، لأقربهم إلي : .. جسدي!
تعاليت عليه وعانقت وهمي، وركضت إلى سرير من ورق.

المرّة الوحيدة التي صالحت فيها أنوثتي وأهديتها حلياً
مذهباً، دمعة من الفيروز المحفوف بالجمان . استوقفتني الدمعة
تتلاً على جيد المرمر، ترمقني من بلور الواجهة الساطعة
الأضواء . دلفت إلى المغازة الأنيقة، وكطفلة راقتها لعبة، طلبتها .
قدّمت لي، تترقق بحزنها البراق في سلسلة الذهب الرفيعة . كانت
المرّة الوحيدة! —

ولكنني ضيعت الدمعة المذهبة، هدية الأنوثة الوحيدة التي اشتريتها
— لأول مرّة — ككل النساء، وأهديتها لهذا الجسد!

* * *

الآن، مع الضمادة القاسية على الصدر، والشعر الملبّد
على روائح الكحول والأدوية، يستيقظ شوق جارف إلى الماء،
وعطش حارق للاغتسال والتطهر . ولكن الماء حرّم عليّ، مع
أشياء أخرى .

.. صوت غسان أيضاً حرّم عليّ . حرّمته على نفسي بأمر من
كبرياء جريح . اليوم، هائف غسان . قيل له أنني مسافرة، كما
طلبت، ومع ذلك، تمنيت لو رفعت السماعة، لو دعوته وفتحت

له الباب ليشد بحرارة يدي بين يديه ، ويمدني بصبر الفلسطيني في
دمه ، وتحديّه ، رغم غدر الإخوان وظلم العالم .

لو يمدني بصبر الأرض المخربة الموحدة ، يخفف هذا الشوق الهادر
للخلاص ، ويطفئ بعض هذا الظمأ المبرح إلى الماء يروي عطش
الجسد وشقوق الروح .

أكتشف أنني أفقد غسان أمام وحدتي الهائلة ، وحنين شجي يهفو
إليه . .

أشتاق إلى غسان ، الشاعر المقاتل المرحل إلى أرضي ، بلا سلاح ،
المفترس الأصابع في ملجئي الأمين ، وأشعر أنني وإياه ، بين أصابع
الأخطبوط السرطاني الرهيب ، شريكاً في الفقد .
. . ومع ذلك أظل وحيدة ، مع فقدي وحنيني وظمئي .

من بئر العطش القاحل ، أشرقت فجأة فكرة :

سأمضي إلى شمس الطريق ، سيتفجر الماء الغزير الدافئ على
رأسي في المحل القريب .

بحزم ، فتحت الباب وخرجت . هبت في وجهي أنسام
الربيع القادم . على بعد أمتار من البيت ، دلفت إلى القاعة الأنيقة

المزدانة بالمرايا على الحيطان وفوانيس الضوء . رحبت بي ربة محل
التجميل ، المختالة في اكتمال زينتها قائلة :

— هل شعرك نظيف ؟

ابتسمت ساخرة ، . لم أقل لها أنه يقطر دهونا وأن روائح غرفة
العمليات مازالت تسكنه — رغم الأيام العشرة الماضية —
أشرت برأسي نافية . وأغمضت عيني ، وأنا أسلم رأسي إلى مسند
الكرسي .

انهمر الماء الدافئ ، لذيذا ، منعشا و تخللت الأصابع الرقيقة شعري
السابع في الماء ، تفركه بالشمبوان ، ترغيه ، تدعك بشرته ، تشطفه
تحت سيل الماء الساخن الغزير ، مرة أولى ، وثانية ، وثالثة .
كان الماء يركض في عروقي . يسري في كامل جسدي . يغمرني
انتعاش لذيذ .

أخيرا ، بين يديها تعصر شعري المبلل وتلفه بالمنشفة الوردية
المنتظرة .

— بالصحة والهناء ! ابتسمت قائلة .

أمام المرأة ، بدا شعري المغسول ، لماعا ، جميلا ، والمقص يلاعبه ،
مشذبا أطرافه ، قبل أن تتطاير خصلاته أمام أنفاس المجفف
الساخنة .

مع احمرار الأصيل ، قررت : هذا المساء ، قبل تناول
منومي الذي فرض علي ، سأدعو المغفرة والنسيان .
سأجهز الجمرة وأرمي للجمر المتوقد لشذى البخور ، لتعالى
الغمامة العبقّة تنتشر في فضائي ، تعانق غلاّلي .
قابلني وجهي في المرآة . مازال صبوّحا ، ناعما ، مريح القسمات ،
رغم شحوبه . توقفت عيناى عند خصلات الشعر المنسابة مائجة ،
تكلك البياض على الكتفين . لم تتعدها عيناى ! ! .
فتحت درج زينتي . دعوت الظلال . رفعت الفرشاة
الصغيرة . ظلال بنية على طرف العينين . . ظلال
أكثر . . أكثر . . الرمادي ينضاف ، يزيد العينين اتساعا وعمقا ،
يتلاشى على طرف العين فوق الرموش الطويلة السوداء . يمتد ليل
النظرة العميقة كسيرا ، متداعيا . فرشاة الوردى تضيء الوجه
الشاحب ، تحييه . قلم الأحمر الأقحواني يرسم الشفتين النديتين .
عطر كيلوبتره خلف أذني ، يتسلل ، على أناملي ، داخل منامتي ،
على صدري ، فوق الضمادة المبقعة بقطرات من دمي . يضع
الطيب .
في غمامة العطر والبخور أرحل . أذكر كيلوبتره ، انتحرت
بسمّها . . هل تراني أدعو حتفها إلي ؟

من العرش السماوي سقطت ، لأصطدم بالأرض . فلاجمل موتي
قدر استطاعتي !

هذا المساء ، اللحظة لــــي ! القــــــدر
لــــي ! فتعــــــــال يا
حســــــــام ! لأرفع ذراعي إليك ، تاركة أوهامي الماضية
للجمر !

آه يا حســــــــام ! . . ما ألد لمساتك تنحدر مع
فقرات ظهري ، لا تكاد تلامسني ، تنيم مخاوف جسد مرتعب
وتحيي نشوة الحواس من جديد !

يا رجل الحكمة التي لم أدركها إلا بعد فوات الأوان : Cueillir
dès aujourd'hui, les rose de la vie¹

ترردها على مسامعي عند كل جموح . يا رجل النسيان الأخير !
تنتظر شفتاي وهج دفئك وينسدل جفناي ، لتغيب الدنيا في
أحضانك . . أرفع ذراعي إليك ، أطوق جيدك النابض العروق .

¹ لنقطف من الآن ورود الحياة !

عضو، كل خلية في، تحكمني ذات تطلق الأمان وتمضي في التيار الجارف مستفزة، تتلمض دم جرحها.

أخيراً، تخلت عن دواء اكتئاب يحاول وأد أوجاع الروح وتأهيل الجسد المتور. اكتفيت بالمنوم يحمد أرقى.

عدت في غياب سلمى — أجرني لإعداد قهوتي. قهوة خلف قهوة، تنبه الذهن المرهق بآثار التخدير.

اليوم فتحت أوراقى وأخذت أقرأ آخر ما كتبت في مسودة روايتي. اشتعل عنوان الفصل، بخطي المتوتر: "العروس" يعيدني إلى ذكرى سهرتي أمام شاشة التلفزة.

أي صدفة، جعلتنا ذاك المساء، نلتقي بعد العشاء، أنا وحسام، مع شريط "عروس الجولان"، لتكتمل جولة يومي مع مسلسل الهوان العربي وأخبار خيالاته وهزائمه؟! ولأمضي إلى الفراش والروح تنوء بعذابات الكوكب الأرضي المحترق بنيران ساكنيه، فأخيب مرة أخرى رغبة حسام في جسد يتقد شهوة ويضيء الليل بمباهجه، وقد أفسد هباب الأرض الجريحة كل ولائم النسيان!

«من بعيد، بين أجمات الجبل المخضرة، أطل الفستان الأبيض الطويل. بدت العروس الجميلة في اكتمال زينتها، براقه

العنين، بإكليل الزهر الأبيض على الجبين، تتسلق مرتفعات الجولان، مع بضعة أنفار.

هذا النهار، بعد تجاوز الحواجز العسكرية في أعلى الجبل، ستنهي قصة الفراق والحرمان الذي فرض على الحبيين، وامتد لسنوات.. جاران كانا، في جنان الجولان. فتیان عاشقان، لما هجم الاحتلال الإسرائيلي وافتك الأرض ومزق جبل الجولان السوري، لتنضاف مرتفعاته إلى الأرض السليبية في فلسطين.

وجد الفتى العاشق نفسه في أرض محتلة تسيجها الحواجز العسكرية وفتاته، في الجانب الآخر من الجولان.

ظل العاشق ينتظر، على حافة الجنون، على الطرف المحتل، المطل على سفوح فلسطين. حاول مرات، لقاء الحبيبة، وقد أضناه الشوق وطال به النوى، دون جدوى، فالألغام مدفونة في التراب، والرصاص يردي قتيلًا من يقترب من الحاجز العسكري.

أخيرا، بعد سنين وبعد إجراءات عسيرة مضنية، سيلقى غزالته الحبيبة. عروسا تأتيه.. ستعبر المسافة العسكرية المحرمة والحواجز — وحدها — حسب شروط العساكر الإسرائيليين. وستصل أخيرا إلى حيث الفتى المنتظر في الجانب المحتل من الجولان.

من بعيد، ارتفع صوت العاشق المنتظر قويا في مكبر
الصوت :

_____ أنظر _____ في
انتظر _____! .. في انتظر _____! .. على
أحمر من الجمهر! ..
رددت أجهات الجبل الصدى : أنظر _____ في
انتظر _____! .. في انتظر _____! ..
في انتظر _____! .. على
أحمر من الجمهر! .. على
أحمر من
الجمهر! ..

لأول مرة، أفتر ثغر العروس القرمزي عن ابتسامة
خجولة، سريعا ما تلاشت أمام مشهد الجنود المتوترين، المدججين
أسلحة. ظلوا في ذهاب وإياب بينها وبين مركز المراقبة، رافعين
السلاح، وبقيت العروس واقفة، على الحاجر، في مهب الريح،
بفستان الفرح، بزيتها البسيطة التي بدأت تحبو، بصمتها البليغ،
بينما الأب يروح ويغدو في انتظار إتمام إجراءات العبور.
مرت ساعة .. ساعتان .. ثلاث ساعات .

تعب الأصيل . . تعب الأب المترجي الكاظم غيظه . رغما عنه ،
ارتفع صوته غاضبا ، صارخا ، دون جدوى .
الجنود الإسرائيليون لا يصرحون بالمرور . الأوراق اللازمة لا
تكتمل إلا بإمضاء الضابط الذي خرج في مهمة ولم يعد .
أخيرا ، صاحب كبيرهم بصوت بارد جاف :
— ارجعوا غدا !

اتجهت الكاميرا إلى شمس الجولان الغاربة . خجلت ،
توارت الشمس خلف الذرى . شحب وجه الأرض واربد . هب
الشجر ثائرا مع الريح .
انتهى يوم العمر . اكفهر وجه الفتى المنتظر البعيد . ارتفع صوته
عبر مكبر الصوت من جديد . علا صدهاء مخترقا غابات الجليل ،
منتشرا على السفوح .

— لن أتراجـع! . . لن
أتراجـع! . . سأظل
هنا! . . سأظل
هنا! . . فـي
انتظـرك! . . فـي

عدت، بلا جواب، أتصفح الأوراق الماضية : الشرق الممزق
يتآكله السرطان، يسقط إكليل الفرع، يقتلع جذور الشجر، يدمر
معمار مدن الشرق المتوالية، من حيفا، إلى بيروت . . من
القنيطرة . . إلى . . قرطاج !

رفعت كأس الحارقة، تلمضت مرارة قهوتي، وعدت
أكتب، ناسية جرح أرضي وملامة جسدي .
يئز الوجع، بغتة، في الصدر، لحركة لا إرادية متوترة، يحاكم
قلمي الثائر : هذه هي الأرض ! هذا الجسد مدينتك التي لا مهرب
منها ! . . مدينتك الورقية اختراع زائل وجدران وهمية آيلة
للسقوط !

لا مباليا، يركض القلم، متمردا، مغيرا، يقدح الشرر . . يجرني
للتزحلق على الجليد، فوق جبال شاهقة، تمتد بينها
الهاويات . . وتتناثر المدن .

خارقا، يعود الأدب، يأخذني من جديد .
يرفعني . . يبعثني في سمائه . . يعيدني مزنا يروي أراضي الباقية .
خجلا، يصمت جسدي — رافع راية الزمن — أمام سيل
الجارف، أمام اتساعي اللانهائي . . يسقط راياته، ويدعوني،
لأرفع عنه وجع الانكسار، وأسقيه مدامتي .

الآن ! له أن يسكر !

ألم أعصر له من كرامة أوجاعي ، مدامة سكري ونشوة أدبي؟! . .
الآن ، أعانقه ، أحضنه ، أهدهده ، وأغمض عيني ، سكرى
بأوجاعه . .

أعود ، أركب الريح ، وأطير ، في ثنايا الجبل ، مع عروس الجولان ،
مع عتمة المساء ، في انتظار نهار جديد ، . . قبل أن . . يبدأ بعد
يومين ، العلاج الكيميائي ، يقيد الفرس الجامحة .

ورقة سابعة :

فاجأني الحكيم ، وتركني معلقة على حبال الخوف وهو
يلقي قراره بصوت واثق حازم .

— سنبداً الأسبوع القادم ، المرحلة الثانية من العلاج : العلاج
الكيميائي .

المرّة الأخيرة ، لم يربت على خدي ، لم تشرح الابتسامة محياه . ظل
بعيدا محايدا ، وبحر الزرقة في عينيه النفاذتين يغيب في ظلال ليل
غامض .

عدت ، وحيدة ، أغلق بابي ، أتشبث بقلممي ، ألغنه
وأتعلق به . . أشتمه وأدعوه . . أفتح أوراقمي ، وأسرع إلى
روائتي . . وأذكر غسان . كم مرة هاتف ، وكم مرة صده الصمت
الهادر .

سيكون جوابي الوحيد له : الرواية التي ينتظر .

الآن ، لتنهض كل الحواس ! كل الخلايا !

لتتسع الرؤيا الأقصى مدى ! ولأفتح ذاتي لرياح الكون ! تماما ، كما
فعل بطل «الكيميائي» في رواية باولو كويهللو . في أنأى الأماكن
وأكثرها تصحرا ، يمكن أن تنفتح الذات على عوالم خارقة ، كما
يمكن أن تجد الكنز الذي تجوب كل الدنيا بجشا عنه دون جدوى ،
تجده تحت الأقدام ، في نقطة البداية .

تنبع داخلي طاقة غريبة ، مباركة ، تقاوم المجهول القادم .
هكذا في أقل من أسبوع ، أتممت فصلين من الرواية .

ورقة ثامنة :

في الصباح ، وأنا أدخل المكتب ، وجدت الربيع تفتح على
مكتبتي . زرع ابتسامتي من جديد .

أنا التي قطفت الغصين الأخضر المزهر أمس ، من شجرة الأرنج .
يدي التي وضعت في الكأس مع الوردتين الحمراءوين الأصيلتين
وحطت الكأس على المكتب . ومع ذلك ، ما إن دخلت ، حتى
هبت دهشة طفولية منسية داخلي . احتضني عطر الزهر الأبيض
الصغير ، تزاج مع شذى الورد العربي الأصيل . ثملا ، منتشيا ،
هب الأريج ، والبتلات البيضاء الصغيرة تتفتح بجياء على
الخضرة ، فوق البرعمات الصغيرة الطالعة ، والورد العربي
الأصيل ، يختال بحمرة الحرير ، مرسلا عطره الباذخ .

وقتها ، طار كل شيء ! تبخرت الممرضة التي كانت تقيس
ضغط دمي .

تلاشى الطبيب وأدويته ووصفاته وتحاليله .

تبخر الماضي والآتي . وتبخر الجسد المبتور .

فقط ، أصبحت الدنيا عطرا ربيعيا ثملا مسكرا للأرض التي ملأ
خصبها مكثي .

الأرض ! .. الأنثى المخصاب تتفتق بعطائها . تجود بهباتها .

الأرض ! .. سيدتي ! .. الحبلى ! .. الولود ! .. يعود لها الربيع ،

يحيني ، ويمد أصابعه اليانعة بالزهر يصافحني ، لا مبالية

بجحودي ، لا مبالية بخيانتني .

أهي المغفرة، سيدتي الأرض؟ ..

أم، لأنك تعرفين أنني — بعد حين — سأتيك .. أعود إلى
أرحامك .. أذوب فيك .. ويعود الربيع، فيما بعد، يزهر على
مكتب آخر؟! ..

من هــذه ؟

١

في تمام العافية ! هكذا كنت أبدو البارحة .

مضيت إلى طبيب القلب . سلمني شهادة رضاه بعد أن أجرى التخطيط وثبت من انتظام دقات القلب ، الفحص الضروري قبل كل حصة علاج لتأكيد قدرة الجسد على التحمل قبل الرضوخ للعلاج الكيميائي .

في الصباح ، أصرت سلمى على مصاحبتني ، للمرة الثانية ، مع حسام إلى المستشفى .

استنجدت بعينيها وأنا أتمدد ، بخوفي المكتوم ، على السرير . بدالي وجه مريم العذراء في ضوء النافذة المقابلة العريضة ، ينير حنانا ورأفة . ظلت قربي ، ساعات ، والإبرة مغروسة في العرق . قطرة . . قطرة . . يتسرب الدواء إلى دمي . قطرة . . قطرة . . أتلقي ، ممتدة ، تحت المراقبة ، جرعتي .

أخيرا، يستل الممرض الإبرة، يضغط بالقطن على نقطة الدم
النافر. تعلق الرائحة النافذة للكحول. . يدعو لي بالسلامة، حتى
الحصة القادمة.

كدت أهوي على ركبتى، وأنا أقاد بتؤدة إلى الباب
الخارجي :
— أمسكوها جيدا!

هتف الممرض المسؤول عاليا، بعد أن تركني في عهدة حسام
وسلمى على عتبة الباب.

* * *

ككل مرة، يعودان بي، حطاما يلمانه بين أيديهم.
تأخذني أحيانا اختلاجات تخضني. يكاد يتوقف القلب عن
النبض. . يأتون بالدواء المهدئ. . تحضر سلمى طبق
الطعام. . يأخذني الغثيان حالما أشم رائحة الأكل. . تتقلص
معدتي الفارغة. . يهجم القيء. . تسرع سلمى بإبعاد الطعام
مشفقة. . تعجل بغسل وجهي بماء الزهر. . تصب منه حفنة على
رأسي. . تتألمني سناء بخوف ودهشة. . تحضني ذراعاها
الصغيرتان وتسالني ما بي، قبل أن يجروها خارجا. . تلتفت عند
الباب وعيناها البريئتان تترقرقان دموعا وحيرة وأسى.

أظل أياما على وهني ، لا أذوق الطعام . الروائح القادمة من المطبخ ، تثير غثياني كلما انفتح الباب .

أصبحوا يوصدون باب المطبخ دوما ، حتى لا تتسلل إلي الروائح الثقيلة الخانقة ، ويغلقون علي الباب ، يتركوني لصمتي ويمضون . ألتم على وحدتي الرهيبه في الفراش ، وأنا أشهد معالي تضيع ، وشعري يخف يوما بعد يوم ، يتساقط على الفراش والوسادة يلقي كتلا في دورة المياه .

هكذا ، بعد كل حصة علاج ، يغرق الجسد في بحر من الإعياء الفادح . . لا مبتدأ و لا منتهى له . . أحيانا ، يعبر فضائي نغم عذب بعيد ، أتعلق به . . يحملني وهم الغياب . . سريعا ، يتلاشى النغم ويظل فضائي الوحيد هذا الجسد . . طاغيا . . لا محدودا . . يم مائع معتم من الوجد ، بين الصحو والغياب .

يدخل حسام ، في تمام الصحة والاكتمال ، يتفقدني . تطل نظراته من عل . لأول مرة أسمعهم بنبرة إشفاق يفضحها صوته المتهدج . .

— . . لا أريد أن أراك هكذا!

تسأله نظرتي المتعبة وجبيني المقطب . . يراجع :

— لا.. لا.. لا شيء!

يلتفت وجهي إلى الناحية الأخرى ، يخفي دمعة ترقرت أكتمها
مؤنبة .. الآن! ليس أوان البكاء! .. ليس أوان البكاء!

تجلدي يا دجلة! تجلدي!

وتدثري بأغطية الذاكرة!

أعيد الزمن البهي! وافتحي أنهار السلسيل!

اتركي قصائد الهوى تعود! .. أغنيات الغزل والعشق
والوصال .. نفح الرياض على ضفتيك!

دجلة! يا نهر الجنة! عودي ، يا سليلة شهرزاد ، ذاكرة شادية
مضيئة!

وهج الروح يحرق سلطان الوجع! .. يلغيه! يعلن هزيمة
الألم الغادر ، المستبد!

اذكري الفقير الهندي النائم مرتاحا مطمئنا على سجاد مساميره
الواخزة!

اذكري قوله ذاك الروائي العظيم ، دستوفسكي «إن الحياة لا توهب
من جديد بغير مقابل ، وإنما تتطلب ثمننا غاليا ، ولا تكسب بغير
الصبر والألم والجهاد! .. الصبر والألم والجهاد .. فجاهدي! .. جاهدي يا دجلة! واستقوي على

الخراب ! واتركي الذاكرة تضيء مصابيحك ، علك تقدرين على
الفوز والانتصار على هذا الزمان !

منهكة ، أسدلت جفني علي أغفو قليلا .
أحسست أنفاس حسام الساخنة ، تتقدم . تمر على جفني المسدلين
وشفتاه الدافئتان تحطان على جبيني ، في قبلة حانية ، ثم سمعت
خطواته تمضي ويئدة إلى الباب .
انفتحت عيناى تابعان الجسد الرياضي الفارع يوليني ظهره ،
خارجا . وقتها خطرت فكرة ببالي ، وقررت أن أنفذها لاحقا .

وأنا أرفع رأسي عن الوسادة ، في الصباح ، أفزعني السواد
يغبش بياض الوسادة . . حدقت النظر . . كان الباقي من شعري
المتساقط فوق الوسادة ، وقد لفظته جذوره المخربة بفؤوس العلاج
الكيميائي . وقفت مذعورة أمام المرأة ، وقد عاد مشهد روعني منذ
أيام : كانت المرة الوحيدة التي استقويت فيها على ذاتي ،
وواجهت المرأة عارية ، بلا ثياب ولا ضمادة ، بعد أن أغلقت الباب
بالمفتاح . أطل نهدي الأيمن ، في بياضه ، نافرا ، فريدا ، يرتعش
بوحده البائسة ، بينما امتد الجرح المخيط حذوه حتى الإبط . خط

غليظ مزرق يشطرني أفقيا نصفين ، ويمتد على أرض بلقع لا أثر
فيها لغير سكة قطار شق الأرض وسواها ومضى بعد أن استأصل
النهد وابتلع حبة التوت على الرابية .

صرخ الوجه اللوزي الشاحب الذي سقطت
تيجانه . . سألتني المرأة البراقة :
— من هذه ؟؟؟ ؟؟؟

أوليت ظهري ، هاربة من المرأة كاتمة صرختي . . أسرعت
أستر أنوثتي المبتورة . . أرمي في عنقي المنامة ، وأندس في الفراش ،
ودموعي تغرق في عتمة الوسادة .

* * *

وقتها ، في الظلمة القمرية ، انتشر عبق الحناء ، ضاع
مسكرا ، غامرا الفضاء ، ساريا في الماء . وانحل شعري الطويل .
انتشر حوالي ، في نشوة البحر الراقص الملاعب خصلاته ، تحت
نظرات القمر المكتمل ، وأنا أغوص . . أغوص ، في أحضان
البحر .

حين رفعت رأسي من الماء ، كانت موجات فضية تتلامع
وترقص على صفحته .

— ستار الليل ! — تقول أُمي — أفضل الأوقات لغسل شعورنا
المخضبة بالحناء .

تشدني بين فخذيهما رغم اعتراضني ، مؤكدة :

— ستكونين أجمل البنات بشعرك الطويل المخضب بالحناء .
سيصبح أكثر غزارة وجمالا .

أتململ بين فخذيهما غاضبة ، وتستكين سلمى — كعادتها — فرحة
بموعد الخضاب .

ولكن ، في المساء ، رغم خوفي من البحر الذي لا أبصر في
الليل قاعه ، حين نرتمي بين أحضانه وغمضي ساجحات ، مع أمنا ،
بعد أن نتحسس القاع الرملي بأرجلنا ، تتبدد مخاوفي ، أستعيد
انطلاقي . . البحر الشاسع لنا وحدثنا ، والقمر الساهر ، ومصباح
الطريق ، هناك ، يحرسنا . يسري انتشاء في أجسادنا . ترتفع
ضحكاتنا من خوفنا . ونسبح مرحات متسابقات بين أحضان
الموج .

نعود بعدها ، شعورنا النظيفة المبللة متهدلة على ظهورنا . الليل
يستنشق ضوع حنائنا ، مع البحر الفضي الراقص .
نركض ، وحيدات ، عرائس بحر ليليات ، متسلقات المنحدر
الصخري إلى الطريق . . خفيفات متعشات .

أحسست قطرات الماء تسيل على ظهري العاري ، وقد
توارى القمر ونأى هدير البحر ، وظل الماء البارد وحده ، يتقاطر
على جسدي . رفعت ذراعي أعصر الشعر الطويل المبلول ، ألقيه
على كتفي . . لامست أصابعي عنقي العارية . اصّاعدت ، منادية
خصلات عروس البحر اليلية الصاعدة المنحدر . . ارتطمت
أصابعي بصخرة باردة ، مستديرة ، ملساء .

كانت أُمي قد اختفت مع سلمى . . غاب البحر . . والسماء الليلية
الشفافة . . وضوع الحناء . . وأطل السقف الحجري ، والجدران ،
وإذا أنا في فراشي ، يدي المرفوعة على وسادتي ، ترتطم بصخرة
باردة ملساء . . رأسي الصلعاء ! . . لقد سقط عنها الوشاح !
وقتها ، لا أدري كيف دخل حسام .

«لقد تحولت مسخاً ، لا جنس له !» . . قرأت الكلمات في عينيه .
كانت شفتاه مزمومتين ، وهو يقف قرب الفراش ، ينظر إلي من
عل . أسرع أشد الوشاح على رأسي . . أرفع الغطاء ، أدفني في
ظلمة تضج بالألم ، وأبكي في صمت .

الآن ، ماذا سيفعل حسام ، الرجل المتعطش دوماً إلى
الرواء؟

ها هي الخيانة تطل ، من الفقدان الذي أحمل ، تفتح واثقة الباب !

يومها ، على عتبة المتاهة ، رغم إخفاء صلعي بالباروكة التي
اشترتها لي سلمى ، عادت الفكرة تراودني بإلحاح .
أكانت محاولة للتخلص من أوزاري وقضاء جزاء النسيان؟ ! . أم
انتقاماً من كبرياء دجلة وزهوها الماضيين؟
كان لا بد أن أدفع ثمن خطاياي . لقد أصبح قراري حاسماً .
سأقدم إلى حسام الثمن : هديتي الأخيرة ، يوم عيد الميلاد .

من احتضاري، أخذني النغم.

جاء من المذيع المفتوح، رفيقا، حانيا برفيف أوتار العود
والكمنجات، وارتفع صوت رجالي، ببحّة الشوق، مهلك
العذوبة، أسر الذبذبات، مع النغم الخليجي الطروب...

ليلاً هـ

لـ و باقـي

ليلة هـ

فـي

عمـري

أيـهـ

الليلاً هـ

وأسـهـر، فـي

ليـل عيونـك

فـي ليـلـة

عمـر!

عاد دمع الحياة، دمع الطرب، الشجا، الشجن، يترقرق في عيني،
والنغم الخليجي الجارح الصدق والجوى يغمر الفضاء. ما عاد
الجسد مفتتا إلى ألف قطعة. ما عاد مبتورا مدانا. هل النغم، يفك
أغلال الألم. يرمم الخراب. يترقرق، ماء سلسيلا، مسكر
العدوبة، نافورة أندلسية شادية، بهاء ونضارة وسحرا.

..لیدَه!

..لوباقى

لِيَاكُفِّرْ عَنِّي!

ف

عزري!

ليلا!!

أدعو وجهه الماضى!

أَدْعُو عُنْفَوَانَهُ وَمَوَاقِدَهُ إِلَى .

أدعو الجسد الزجاج المكسور ليتجمع وينساب!

يحوّله النغم الطروب لسانا من الزجاج الذائب حارقا في التنور ، في
رحم التكوين .

وأدعوك يا حسام، اقبل هديتي القادمة إليك! .. أدعوك لتقرب أكثر! .. أكثر!

أبِيعَهُ اللَّيْلَ هـ
واسهـرر في ليل عيونك
ففي ليلة عمـرر!
.. فـ في ليلـة
عمـرر!
.. فـ في ليلـة
عـمرر!

رويدا، رويدا، أخذ النغم يتلاشى، والسكون يعود والغرفة تسمي
خاوية باردة.
أردت القيام، هممت بالجلوس. حينها، انزلق الوشاح، أسرع
أعيدته على رأسي وأحكم ربطه، قبل أن أخرج باحثة، بمفردي،
عن ورق أكتب عليه رسالتي إلى حسام، فبعد يومين، يحل
عيده.. عيدنا.

الهدية

١

التمعت الشرائط الملونة المعلقة ، والكويرات البراقة المضيئة . أتت سناء بنجمات من الورق الفضي الملون ، خضراء وزرقاء وحمراء ، صنعتها في المدرسة بيديها الصغيرتين ، زين بها علي الشرائط . بحثت سناء عن زهر الشتاء في الحديقة . قطفت باقة من البراعم الصغيرة الحمراء . وضعتها في مزهرية قرب الفراش . هكذا ، في غرفة نومي ، تباريا ليزهر سرير الوجع .

دعاني حسام ، ملحقاً ، أن أترك السرير ، وأجلس بينهم . مستجيبة ، نهضت من سريرتي . انتقلت إلى غرفة الجلوس فاليوم عيد حسام . كدت أنسى أنه كذلك عيدي . فقد وحد القدر يوم ميلادنا .

في الغرفة الواسعة المشرقة ، رفعوا في وجه المرض كل أسلحة النسيان : شرائط الزينة الملونة المتلائة ، الموسيقى الراقصة المرحية ،

الأغنيات الطربية التي أهوى ، وعلى الوجوه ، إشراقة الحنان
الغامرة .

تركت جسدي يرتاح على الأريكة الواسعة ، وأنا أستسلم للنسمة
المنعشة التي هبت على الروح تحييها .

تذكرت بغتة إجابتي لحسام هذا الصباح ، وهو يسأل :

— كيف أنت اليوم ؟

. . «كيف أنا في يوم عيدك؟! . . أي هدية يقدم جسدي المبتور ،
المدان؟؟ ؟»

. . هل كان ذاك جوابي — حقا — ؟ . . الذاكرة أصبحت ترميني

— أحيانا — في بؤر مظلمة ، حالكّة ، فإذا أنا ، بين الوهم
والحقيقة ، ضائعة . ومع ذلك ، أذكر جيدا ، أنني لأول مرة ، لم
أشتر لوازم كعكة العيد . لم أقشر اللوز وأكسره ، لأرّش به
الكعكة الساخنة التي كنت أعدها بيدي . لم أكتب بالشكلاته
السوداء والبيضاء ، اسمينا المرشوشين باللوز والسكر ، في ظرفيرة
ألوان شهية ، مغرية .

وأنا أجلس ، مستسلمة لأريكتي ، في انتظار الكعكة
المشتراة ، خطر المتنبى . . علا صدى صوته المهموم على الأغنيات ،
عيد! . . بآية حال عدت يا عيد؟

ابتعد الصدى أمام لهبات شموع خجولة أطلت من الباب ،
وصوت الطفولة القادمة يتعالى في موكب الفرح البريء مغنيا ،
هازجا : — عيد ميلاد سعيد! . . عيد ميلاد سعيد!

تهادت الشموع ، تراقص لهباتها فوق كعكة الحلوى القادمة إلي ،
وسناء الصغيرة ، تقرب ، تحمل الطبق المنير ، مشرقة المحيا ،
وحسام خلفها ، مع علي ، يتقدمان ، مباركين ، يقبلان وجنتي .

في ابتهاج طارئ ، احتضنت صغيرتي ، بعد أن وضعت
الكعكة ، بجذر على الطاولة . غرق وجهها في أحضاني . ضغطت
بقوة ، أشدها إلي . . وإذا أنا أضغط على نهدي المبتور ، أملاً بسناء
الفراغ فيه .

حين ركضا خارجين متسابقين ، ليأتيا بالهدايا إلي ، وإلى حسام ،
لم أكن أتوقع أنني سأجد بانتظاري رسالتين .

رسالة سناء

أمِّي الحبيبة
عيدك أجمل الأعياد

قلت لي يوما : سميتك سناء لأنك ضوء أنار هذا البيت!
بل أنت يا أمي ضوءنا، فلا تتركينا للظلام!
أمِّي العزيزة
متى تتركين فراشك، لنعود كما كنا؟ شفاك الله!
إني كل يوم أدعو أن يستجيب الله لدعائي، لأنني أحبك جدا،
جدا، وأحب الله.

أمِّي الحنون
اليوم عيدك، وعيد أبي، وأنت لا تغادرين الفراش ولكن، قبل أن
نشعل الشموع، لا بد أن تنهضي!
ستشفين، بإذن الله، كما يقول أبي.

وسنعود نجلس كلنا حول المائدة ، تعبئين لنا الصحون ، فنأكل
بشهية ، ونضحك ونمرح معا .

لا تخيبي رجائي يا أمي !
عودي لنا كما كنت .
شفاك الله يا حبيبتي الغالية
سواء

رسالة عليّ

أمّــــي العزيزة—————

أتمنى لك عيداً سعيداً .

وأهديك هذا الكتاب : «الغد المشرق» . اشتريته لك لأن عنوانه يوحى بالأمل ويبعث على التفاؤل وكاتبه معروف بجودة أسلوبه وقيمة كتبه كما قالت لي أستاذة العربية .

أمّــــي العزيزة—————

إليك ، مع «الغد المشرق» ، وعدي بأن أحقق لك كل الأمنيات عندما أكبر . سأجتهد وأنفوق كما تريد ، لتكوني فخورة بي . لا زلت أذكر أنك سميتني «علي» على اسم جدنا الأول ، ذاك الذي قدم في حملة حسان بن نعمان الثانية إلى قرطاجنة لفتح البلاد ونشر الدين الإسلامي واستقر بمدينتنا . «علي العامري» : أول طبيب بارع يأتي من المشرق مع القائد الفاتح لينقذ الجرحى ويداوي المرضى ، ويتخذ من البلاد المفتوحة وطناً جديداً .

أذكره وأنا أراك تمتدين عليلة في فراشك ، لا تراجعين
دروسنا كعادتك ، ولا تتنقلين نشيطة مرحة في أرجاء الدار .
ولكني سأكبر سريعا لأصبح مثل جدي علي العامري .
سأقاوم كل أعداء الإنسان : المرض والجهل والكفر .
سأصبح مثله حكيما شجاعا شافيا ، فأداويك يا أمي العزيزة . لن
أترك الداء يعذبك ويبعدك عنا .
أبقاك الله لنا
وكل عام وأنت بخير وعافية

ابنك المخلص

علي

لحظات نادرة، انداحت فيها الوحدة، وخجل الأسى الساكن
الكيان، والمحبة تلتمع في عيون الطفولة البريئة المتعلقة بي، محاولة
زرع الربيع في جراح الأرض الدامية.

ولكن، حين سكنت الموسيقى، وتلاشت عذوبة الحلوى
في الأفواه، ومضى كل إلى مبتغاه، صحت الأرض
المجروحة.. وجدتني، من جديد، وحيدة في مواجهة المرأة.
.. أهذه أنا؟؟.

أوليت ظهري سريعا للوجه الرمادي المنطفئ وقد كادت تختفي منه
الرموش والحاجبان — تحت تأثير العلاج — رغم محاولات قلم
الزينة رسم المعالم الضائعة. بنجولي المهين، مضيت إلى الفراش.
ابتسمت لي الصورة مواسية: عينا دجلة الواسعتان الوطفوان في
الوجه الصبوح النضر، مضيئتا الفرح، الثغر الباسم اللماع،
الصدر العامر المزهو، وخصلات الشعر الغزير الهفهاف على
الكتفين.

فجأة، وأنا أرفع ذراعي لارتداء المنامة، اشتعل الوخز يوحد الجرح
الممتد شاطرا جسدي. انتشرت ذبذباته حارقة، ماحية بلسم
المحبة الذي أحياني ساعة من زمن. كتمت صرخة الألم، وناديت

حسام ، فالآن ، في غرفتنا ، بعيدا عن الأطفال ، أوان رسالتي إليه ،
قبل أبلغ مخدري وأسقط في هوة النسيان .

انفتح الباب ودخل حسام ، مختالا ، في تمام الصحة
والعنفوان .

أسرعت أعلق ابتسامة وأسبقه بالكلام :

— حسام ! الآن ! أنا التي سأهديك ! . . اقبل هديتي ! . . قد تكون
آخر ما أقدم لك . .

قطب جبينه منفعلا ، رافعا صوت اعتراضه على
تشاؤمي ، ولكنني عجلت أدس في يده ورقة مطوية باعتناء ، وأولي
وجهي ، بعيدا عنه .

أمس ، في تلك اللحظات الليلية القادمة ، لامعة بالبرد
والندى ، قبل قدومه مع الصغيرين ، كتبت رسالتي .

كنت وحيدة ، على حافة الزمن ، أصغي إلى الأرض . . إلى
السماء . . العالمان يتحدان داخلي : العالم الأرضي الضاج
بالشهوات ، الصارخ بالألم ، والعالم السماوي الرفيع القدسي .

من ضوء اللقاء الوامض ، كنت أخط حروفي ، وألف في أقباسه
هديتي .

رسالة دجلة

عزيزي حسام

قريبا، يحل الغروب، ويزداد برد البيت قبل حلولك مع الصغرين.

أنتظر _____رك!

أنتظر _____رك، لتشعل الموقد وتملأ البيت حركة وحيوية.

ينتظر _____رك شوق،

.. وخوف،

.. وندم،

.. وليل غامض الرغبات، بعيـد

الأسـى

أنتظر _____رك!

.. لأعـود إليـك!

.. لأمضي عنيـك!

حسام

يا ذاكرة الزمــــن

الجميل

هـي ليلة عيدك!

ليلة اكتمــــال زهــــرة

الأربعيــــن ، ذروة الرجولة ، وقمة الإكتمال للبطل

الرياضي الذي كان مرفئي في أحضانه ومحطاتي في ملاعبه ، محطات

الاستراحة السريعة والطيران من جديد ، بعيدا عن أرض تمور

وتصطبـخ بالحياة في أحضانك .

اليوم ، في عيدك ،

أهدي ما يرضي الجسد المعافى المتعطش للرواء .

أهديك ما يطفئ حرائق الخيانة الكريهة القادمة ، الخيانة التي

ستقتلني قبل أن يقتلني المرض .

أهديــــك . . امرأة . .

امرأة توقد في سريرك نار المتعة التي سرقها الأدب . تعيد نبض
الأرض المخصاب الذي أسكتته أوهام الكتابة . تمنحك الغد ، بعد
أن دمر جسدي المخرب غدنا المنتظر .

لا ترفـض ، أرجـو !
وامنحني حـق الاختـيار !
لتك
لك . . سلمـى . . شقيقتـي
، وحبـبتـي العـذراء .

وقف حسام . حرق بي مدهوشا واشتعلت نار لاهبة في عينيه
الكبيرتين . انحنى عليّ رافعا يده إلى جبيني ، سائلا حرارتي . قضم
بعصية شفته السفلى ، قبل أن يرتفع صوته المنفعل :
— . أهذا فصل من رواية خيالية قادمة ؟ . أم هي فعلا رسالة
مجنونة إليّ ؟

تهدج صوتي المستشار على حافة البكاء :

— ليس رواية ما أكتب! أنا في قمة الوعي الآن . . أكتب قدري!
قدرا أفضل لك ولطفلي! . . أريد زوجة لزوجي وأما
لأطفالي! . . لا أريد خيانتك! . . أعرف أنك غير قادر! . . أكره
الخيانات! . . ستقتلني الخيانة، لا المرض!
واختنق صوتي الراعش بدمع مكابر .

جلس حسام قربي، على حافة السرير، سحابة حزن تظلل جبينه .
أمسك ذقني ورفع وجهي إليه .
— أي جنون أوحى لك بهذه الفكرة؟ كيف تطلين ما يمنعه الشرع
والقانون؟ . . لماذا كل هذا؟
. . أنت بخير الآن! أكد الطبيب أنك ستتعافين بعد فترة العلاج،
على ألا تستسلمي لليأس . . رجاء! كفي عن هذا الهذيان!

كان السلام الذي حل بيننا أثناء حفل عيد الميلاد يتلاشى،
والصمت يعود راشحا بالأسى، والشرائط الملونة المعلقة إلى النجفة
المطفأة، تشحب ألوانها في الضياء الخافت لمصباح السرير، وتنظر
إلي مشفقة .

أخيرا، ضغط حسام على زر المصباح . اختفت الزينات
وغمرتنا ظلمة الليل . وانشئ كل منا على ذاته . كان حسام قد
أولاني ظهره، مع الدنيا . وكنت أغرق ، وحيدة، في ثقل غيبوبة
مخدري .

قضمت الغيوم شمس الصباح . لم تبق غير انكسارات
أشعة باهتة باردة أمام ستار النافذة المرفوع على النهار الطالع . من
أيام لم أر سلمى . دعوتها أمس بالهاتف وها أنا الآن بمفردي
أنتظرها .

أخيرا ، أقبلت ، مشرقة ، موردة الخدين ، انحنت تقبلني سائلة :
— أمازلت في السرير ؟ . . الأفضل أن نخرج ونتمشى قليلا . الهواء
منعش خارج البيت .

قلت لها أنني متعبة والطقس بارد . أسرع تقاطعة :
— ستسعين التعب ، انظري ! لقد عادت الشمس
للظهور . . أنسيت نصيحة الطبيب ؟ الترويح عن النفس من أهم
عوامل الشفاء .

امتدت يدها إلي مشجعة ، ترفع عني الغطاء ، تشبثت
بدثاري وأسندت ظهري إلى وسادتي .
تأملت ، في صمت ، الجسد الأنثوي المكتمل الخصب ، مفعما
بالحياة قرب جسدي المنكمش في ذبوله . . في خجله .

سرحت في بحيرتي العسل في عينيها العطوفتين ، أنشد مرساتي
الآخيرة .

بلا مقدمات ، وجدت صوتي يواجهها ، مرة واحدة ، بطلبي .

فزت واقفة ، وصوتها متوترا ، يعلو ، مصدوما :

— . . لا أصدق ! . . أنت تطلبين هذا؟؟ أنت يا دجلة؟ . . هل
جنت؟ . . ألسنت مؤمنة؟ . . كيف أكون زوجة
لزوجك؟ . . القدر يضعنا أمام امتحان الحياة لنخوضه ، بشجاعة
وإيمان ، لا لنهرب منه ، أو نكفر بهذا القدر! . . بالصبر ، والإيمان
يمكن أن نفوز ونتصر على الآلام والأمراض والمصائب .

«ألسنت مؤمنة؟» تستفزني الكلمات ، تقذف في وجهي ، مكفرة .

— لا يا سلمى! . . لا! . . بل عميق الإيمان هو الذي يدعوني
لأكفر عن ذنوبي ، تجاهي ، تجاه حسام! . . تجاه الأرض! . . أكفر
عن نسياني عطية الرب التي بيديه حبا ، لتحفظ قبسا من روحه
على الكوكب الأرضي . . ولكنني تجاهلت الهبة وغفلت عن
الحكمة ، وتركت الهدية للخراب ، لتمتد أيادي الأخطبوط تنهش
أراضي .

الحياة التي تنسحب من جسدي ، أريد أن أبقئها فيك . . في
سناء . . وعلي . . لأنقذ ما تبقى! . . حاولي أن تفهمي! . . حاولي!

— ولكنك ستشفين بإذن الله ! لم يبق لعلاجك سوى حصّتين ، فلمَ
هذه الفلسفة السوداء ؟ . . وهذا التفكير فيما يحرم الشرع والقانون ؟
رغما عني ، علت صرختي ، من قاع الروح .

— الآن ، جســـــــــــــــــدي هـــــــــــــــــو الشـــــــــــــــــرع
والقـــــــــــــــــانونـــــــــــــــــون !

وغامت الدنيا في عيني . تكسرت ثلوجها دموعا تغرقني في شتاء
معتم ، مدلهم .

لحظات خاطفة ، مسحت بعدها مسرعة وجنتي المبللتين
وتخلصت من ذراعيها المشفقتين ، وأنا أردد بحزم :
— إن طلبك يوما حسام ، لا ترفضني ! . . أرجوك ! . لا ترفضني !
والآن ، أريد أن أرتاح !

وانحشرت في السرير ورفعت الغطاء على وجهي . انحنت سلمى
علي . سحبت عن وجهي الملاءة برفق ، وقبّلت جبيني . بدالي
وجه مريم العذراء يطل علي ، وبسمة مواسية آسية على شفثيها ،
وهي تسوي علي الغطاء وتربت بحنو على كتفي .

سمعت الباب الخارج ينفلق بهدوء . عاد بعدها السكون
يغمر الدار ، تقطعه من حين لآخر ضربات المكينة في يد المعينة ،

تتردد لا مبالية، تنقر بجفاء الأبواب والبلاط، ترفع جفني من جديد على جدران المعتمة العازلة عن عالم يمور بالحياة في الخارج.

بغته، خطرت فكرة : لم لا تكون المعينة وسيلتي للخلاص؟
دفعت الغطاء عني وناديتها. بادرتها حالما انفتح الباب :
— بعد غد الجمعة، أليس كذلك؟ . .

إذن، تذهبين — عند الظهر — إلى الجامع القريب، تطلين من الإمام المجيء، بعد الصلاة، لأمر مؤكد. لا تخبري أحدا!
هل سمعت؟ . . لا أحد.

عاد بعض هدوء يغمر أعماقي الهادرة.
أيمكن أن يلبي النداء؟، فتقبل الأرض قرباني، وتمنح الغفران؟.

كلمات قليلة، مبهمة، تصلني من الباب المغلق . سمعي
 المرهف يتعلق بالمكالمة الغامضة والخوف تدق مطارقه القلب . . أهو
 موعد قادم؟ . . بدا الصوت خافتا مريبا .
 سأحاول . . قريبا . . قريبا . . تعود للعمل !
 . . امرأة أخرى على طرف الخط . . في انتظار البطل الأثيني
 المشتهى ! . . فرصة لارتواء الأرض العطشى وانتعاشة الجسد
 المحموم الظامئ إلى الحزن العامر المكتمل ! .
 — قريبا، تنتهي المهدئات ! . . نعم . . سأحاول . . في أول فرصة،
 السفر . . نعم . . السفر !
 دعوة للمضي حرا، طليقا، بعيدا عن الجسد الأسير، المصفد
 بالمهدئات والأدوية . . بعيدا . . يرضع حليب المتعة من النهدين
 العامرين السليمين . . يحرق الأرض المشتاقة إلى ذرى اللذة
 البارقة . . «سأعود . . أتصل بك» .
 بقوة فتحت الباب، أسرع خطاي إليه، صوتي يرفف
 بالغضب .
 — مع من كنت؟

استدار مندهشا : — ألم تكوني نائمة؟

— لم تتكلم خفية؟ . . من كان معك؟

— لم أرد إيقاظك! كنت مع الطبيب .

— . . مع الطبيب ، برنامج سفر؟!

سكت حسام ، زم شفتيه ورفع الرأس إلى السماء زافرا .

هنيهة ، عاد بعدها مواجهها :

— بصراحة ، كنت أبحث عن حل . . أفكارك الغريبة ،

سوداويتك ، وأخيرا . . يوم الميلاد . .

ولم يكمل .

بعنف ، ارتفعت يداي المتوترتان إلى كتفيه ، ترجانه ، نار الريبة

تشتعل في عيني المحدثين بوجهه .

— سأقتلني! . . سأقتلني لو . . !

— يا مجنونة! كيف تفكرين في خيانتك؟

— . . مرة أخرى ، أطلب منك أن تقبل!

— يا للجنون! . . كفي عن طلب المستحيل! . . هاكي الهاتف!

اطلبي الطبيب واسأليه من كان معه! . . رعبك هذا ، أوهامك ،

دعني لطلبه . هو يوصي بمواصلة الدواء المهدئ شهرين آخرين ،

بالخروج والسفر . فترة العلاج قريبا تنتهي .

لم يبق غير حصتين . عليك فقط نسيان ما فات والبداية من جديد! . . عهدتك قوية ، فما بالك الآن؟ . .

إنك في كل الأحوال ، أحلى امرأة وأشهى امرأة عرفت! . . لولا جنون الأدباء الذي يسكنك! . .

«جنوني؟! . .

جنوني هو مرآة غدي! هو نبوءتي ومنارتي!»

حدقت في أعماق الليل في عينيه . كان براقاً حالكا . أحسست بقطرات ساخنة تملأ عيني . مشفقاً ، فتح حسام ذراعيه واحتواني . استكان الجسد الراعش على صدره العريض هنيهة ، قبل أن تمتد أنامله إلى وجهي . برفق ، تمسك ذقني وترفع رأسي إليه ، مواسية ، مشجعة .

ثم ، بحوية وقوة ، أمسك يدي ، مسرعاً بي إلى غرفة الجلوس ، في دعوة للنسيان والترفيه . فتح التلفاز ، لتملاً الأنغام الراقصة البيت وتزهو الألوان المشرقة منيرة ظلمة الشاشة . في لحظة خاطفة ، استقرت عيناه على صدر المغنية العاري ، التفت بعدها إلي .
— قريباً موعد خروج سناء من المدرسة . سأتي بها .

دقت الساعة الخامسة . انقطع النغم وقد حل موعد
الأخبار ، يأخذني من أرضي المكلومة إلى أراضي الشرق العربي
المخربة ، واساقت من جديد حجارة الأرض المتهاوية على
رأسي .

رمقتني طفلة صغيرة ، يفيض بعينيها الأسى ، ومضت باكية تبحث
في ركام بيتها المهدم . عاتبني عجوز هزيلة ، بصوتها المتهدج
بالبكاء ، أمام أشجار زيتونها المقتلع . صرخ بي الشجر المثمر
المتهاوي ، والأرض الخصبة الباذخة ، أمام جرافات تأكل الخضرة
والخصب والبهاء . تقدمت جرافة عملاقة ، رفعت سكينها
الضخم في وجهي . وبدأت تقطع الأرض . . تقطعني . . وتوالت
الجرافات علي ، تشظيني ، أنا الأرض الجريحة الممزقة والذاكرة
البهية الزاخرة . أظافر الحديد تمتد ، تغوص في أحشائي معربة ،
مفترسة .

مرتبة ، نهضت أدفع الجرافات عني ، أطفأت الشاشة .
ولكن سكاكين الجرافة ظلت منغوسة في لحمي . . تعيد وخز الجرح
البشري ، وهدير الجرافة ، ظل يدوي هادرا ، فوق جسدي ، مغرقا
كل الألحان ، معلنا الخيانة الكبرى ! خيانة العالم .
فكيف أنسى ؟

كيف أنسى يا حسام ؟

كيف أنسى وريح الخيانة تهب من كل الأصقاع ؟

خيانات تتوالى ، تبيع الأوطان ، وتخرب ذاكرة الزمن الجميل . . تحرق سنابل القمح والياسمين .

كيف أنسى أن الذات يمكن أن تخون . . حتى ذاتها ؟ . . أولم تخن روحي هذا الجسد ؟ !

قال لي غسان : «ال سلاح سقط من يدي» ، واستدرك معترفا بمرارة ، ذاكرا التواطؤ والخianates : «ال سلاح افتك من يدي !» .

أفاجأ بغسان يقتحم وحدتي . . يأتي من فجائع الخيانة ، من أوجاع فقدان . . يعود صوته مرددا :

«نحــن حــطــم
الأغــنانــي
ومجــزة القــمــح
والياسمينــن !»

الآن، يا غسان، مع هذا الليل القادم، يزداد إيماني بأن ما
يجمعنا، ليس عشق الحرف وجنون الأدب فقط، بل ما يجمعنا
أيضا، هو هذا الحطام، وهذا الفقدان!
انفتح الباب فجأة وزقزق صوت سناء الملائكي المرح.
أقبلت سناء ترتمي في أحضاني لتضيء بعض ظلمة الأرض
المعذبة.

على باب الله وقفت . كنت أعرف أنه فهميم ورحيم . وأنه ، قريبا ،
بشكل ما ، سيلبي النداء .

على باب الله ، يوم الجمعة ، كنت أترقب مواعيدي السري مع
الإمام .

في انتظاره ، خلال اليومين الماضيين ، تناثرت الكتب
والمراجع على فراشي ومكتبي . نقتب في الفهارس والفتاوى ولكن
انعدم الطلب . عثرت أخيرا في كتاب تاريخ ، على فتوى خُصَّ بها
أحد بايات تونس تبيح زواج الأختين .

ومع ذلك ، ظل الرجاء الأخير في كلمات قد تقنع حسام ، يجود بها
إمام الجامع العالم المعروف .

جاء بعد صلاة الجمعة . تقدم الرجل الربع الخمسيني
بعمامته البيضاء وجبته الترايبية ، مهيبا ، مبسملا ، مسلما خافض
البصر . حالما جلس ، انطلقت أقدم لسؤالي ، وعيناى مرشوقتان
في شفتيه .

ما إن أدرك الطلب حتى اتسعت عيناه وارتفع صوته مستنكرا :

— أستغفر الله العظيم! . . أستغفر الله العظيم! . . القرآن الكريم

صريح واضح في التحريم!

— ولكن، دوماً، هناك استثناء . . يمكن . . إذا اتفقت الأختان . .

— لا حول ولا قوة إلا بالله! أستغفر الله العظيم!

واصلت غير آبهة باستنكاره :

— يقول الإمام علي : «القرآن حمال أوجه» . .

قاطعني وأخذ يتلو من سورة النساء ، مذكراً بالآية الكريمة

المحرمة . . تابع ، ضاغظاً على كل حرف :

— القرآن حمال أوجه لا يعلمها إلا الله والضالعون في العلم ، إذا

خفي المعنى أو التبس . ولكن عند الوضوح ، فبالقرآن الكريم

نأتمر .

— ولكن المفتي شرّع ذلك لأحد البايات ، على ألا يكون الجمع

بينهما في بيت واحد .

— أنه تحيّل الحكام على الشرع ، وفرض الشهوة بالحيلة والقوة

والترهيب . . إنها فتوى باطلة يا ابنتي ! كل المفسرين يجمعون على

التحريم .

أخيراً ، نهض الإمام مستغفراً ، مودعاً . وقبل أن يوليني ظهره ،

قال بنبرة هادئة ، خاشعة وظلال رافة على محياه :

— استغفري الله يا ابنتي ولا تقنطي من رحمته ، واصبري على ما ابتلاك به ، إن الله مع الصابرين .

من الباب الذي انفتح لخروجه ، كان الغيم يظلل السماء
بسحاب رمادي يثقل قلب الأرض .
عدت إلى غرفتي ، وحيدة ، واجهت المرأة ، برأسي الصلعاء
وجسدي المبتور . قلت لها ، ما رددته الضلوع أمام سلمى ، ولكن
هذه المرة ، بصوتي العالي الصارخ . . صوت هز صده الدار
الخاوية .

«جسدي الآن
هو والشعر
وهو والقنانون!»
.. هو
الشعر ..
قنانون
.. لا شيء إلاه .. له
الحكم وله الأمم والطاعة!

حدقت بي العينان الفياضتان أسى ومرارة، قبل أن أهرب من
الدمع الذي تفجر، يشظي المرأة.

فاصل

هو ذا الإمام! . يجلس بين الرجال ، خفيض الرأس ، يرتل بصوته الشجي الخاشع ، مع المقرئين ، آيات من الذكر الحكيم .
جسدي البارد ، على الأرض ، يلفه بياض الأكفان . لقد سقط الصولجان! والعرش هوى! وأنزل الجثمان من طراوة السرير . افترش الأرض ، على السجاد ، بين المقرئين ، لقد اقترب أوان الرحيل .

ظل البحر الهادر ، قاتم الخضرة ، خلف زجاج النافذة العريضة يضرب السماء المدلهمة ، ثائر الموج ، صاخبا على الشواطئ المهجورة الموحشة .

ها هي دجلة! تقف ، في إطار الصورة البرونزي ، مشرفة على المكتبة ، أمام غسان ، في الصالون الذي احتله الرجال ، مفترة الشفتين عن ابتسامة حاملة . على الكتفين الأبيضين ، وشاح أندلسي نبيل السواد ، بخيوطه الحريرية الطويلة على الجانبين ، بأزهاره

الصغيرة المطرزة، الحمراء والصفراء والزرقاء . . خلفها بدت
أسوار قصر الحمراء .

وقف غسان، وعينه تتأملان لأول مرة الصورة، بعد نظرة
خاطفة عند الدخول . أصدق؟ . . لم يكن واحدا حين رآها هناك،
في غرناطة؟

. . تركت العينين الغائرتين، معلقتين بالصورة، تبحثان
في لقاء ضاع على الضفاف البعيدة، تسائلان : هل تقاطعت بنا
الطرق حقا في اللجنة الضائعة ؟
جلجلت أصوات المقرئين مع الصور الأخيرة، تغطي أصوات
النحيب الذي ارتفع .
. . البيضاء الغامري — دعوني . . يلفني . . لأعلو
بعيدا . . بعيدا . . تاركة لغسان تخوم الأسئلة وشتات الكلمات .

غرناطة

١

إليّ يا خليل ! يا عراقي الهوى والحنين !
على خرير الماء الراكض مع سواقي جنات العريف ، على صوت
أقدامنا المنحدرة مع الدرب المبلط خارج قصر الحمراء ، يعود
شجن جارح عتيق .

لنسرع بعيدا ، نملاً أقداحنا حد الفيضان برغوة الشراب
الإسباني ! ولتدع الليل الأندلسي يمنحني امرأة صاعقة لتحرقني
عشتار في الجسد الناري !

هيا يا نديمي ! أنت الخبير بهذي الدروب ! خذني خارج
الزمن إلى كوكب امرأة تزرعني في أرض صلبة ولا تتركني سحابة
في الريح ، فجناحي أتعبهما الرحيل ! . . امرأة تسكت ذاكرة الحنين
والرحيل الأبدي ، تنيم صوت خرير الماء الباكي الراكض في
سواقي جنات العريف تحت ظلال الشجر السامق العتيق ،
مصاحبا خطونا ونحن ننزل إلى غرناطة .

امرأة تنسيني نداءات أصابع الأسرى المتسللة بين القضبان في
معرض تيسير ، المقام بحي البيسين .

لنمض بعيدا عن قصر الحمراء وجنات العريف !

بعيدا عن حي البيسين أو البائسين .

جنان نساء أمراء غرناطة ! . . بعيدا عن حي البيسين أو اليائسين ،
كما سماه العرب الراحلون ، هناك ، حيث أقام تيسير بركات
الفنان التشكيلي الفلسطيني معرضه ، في تلك القاعة العتيقة المقوسة
السقف ، المطلية الجدران بالحص الأبيض العربي ، عند سفح
الحمراء . . هناك ، هذا العشي ، وجدت أصابعي ، خلف القضبان
تكتب رسالة الفتى التي ظلت ، من سنين بعيدة ، في سجن حيفا ،
بلا وصول .

«الرقم . . الذي صار إسما» .

هكذا أراد تيسير عنوان معرضه . قاطع اللوحة . . «تجاوز نخبويتها
وترفعها» ، ليعرض التفاصيل الصغيرة الحاملة وحشية الواقع
ولوعة الألم ، رسائل الأسرى وأشياءهم الصغيرة الباقية : قلم
مكسور . . رسالة حال لونها تتزاحم فيها السطور . . صورة ابن
ممزقة الحواف . . حذاء قديم فاقد الخيوط . .

كانت الرسائل محبوسة في صناديق صغيرة من الزجاج على أعمدة حديدية سوداء شبيهة بأعمدة السجون ، أو مصلوبة على الجدران مع وجوه من الخشب ، غائرة العيون ، مكوية بالنار .

تقدمت خطاي داخل القبو العتيق . توقفت أمام صناديق الزجاج الصغيرة . كانت الرسائل ترمقني ، بشحوبها . . تدعوني ، للألمس أصابع الواقفين خلف القضبان . . ارتفعت يدي إلى الحاجز الزجاجي . . عاد صبي الأمس البعيد ، مستفز الحواس ، من جديد . . حلم طفولي عبر فجأة .

. . هنا ، قد يجد رسالة أم كان ينتظرها — بلا جدوى — منذ أكثر من ثلاثة عقود . . هنا ، قد يجد قطعة من رسالة كتبها في سجن حيفا ، وقد اجتاحه الحنين إلى أم غائبة مجهولة المصير . . ولكن الرسالة المشحونة شوقا وحنينا ، افتكت من يده . مزقت أمام ناظره ، وقد اكتشفها السجنان . . تلقى بعدها ضربة جزمة عسكرية رهيبة في حشاه .

يومها ، وحيدا في الزنزانة ، عاد يحفر ، يخط ، يرسم بغضبه الصارخ المقهور المتحدي ، بأزرار قميصه الحديدية ، بأظافره ، بدمه ، باب الدار المفتوح . . شجرة الأرنج

المزهرة . . الفن المورق المخضر المنحني على رأس أمه الملوحة
بالرغيف . . ونجوم تتطاير من خاتمها الفضي .

رغم أنهم مزقوا الرسالة وألقوه بعد انتهاء العقوبة خارج
السجن ، إلا أن أشواق رسالته ظلت محفورة على جدران سجن
حيفا ، ويد أمه بخاتمها المضيء ، بقيت منقوشة على الصخر الملطخ
بالدم .

والآن ، وأنت تفتح نوافذ السجون وتأتي برسائل الشهداء
والأسرى إلى غرناطة ، هلا أتيت يا تيسير برسالة الفتى النازفة
هناك ، حتى يكتمل التشكيل المدهش في معرضك؟!!

* * *

حين خرجنا من القبو ، تمشينا صامتين ، مستسلمين
للدروب ترتفع بنا إلى الرياض المحيطة بقصر الحمراء .
وشوشة الشجر العتيق المتشابك تموج مع هبات النسيم الندي .
ظلال خضرة باذخة تتمايل سكرى على الثرى ، وخير ماء
الجداول المتلألئ الراكض في المنحدرات ، يصحبنا إلى المجهول .

استوقفتنا شجرة غار ظليلة تنشر طيها على العابرين
وعلى جذعها نقشت بالسواد عبارة : «زفرة المغربي» الأمير عبد الله
الصغير آخر ملوك الطوائف .

من هنا مر ، ماضيا إلى منفاه ، بعد سقوط غرناطة سنة ١٤٩٢ ،
تبعه بقايا حاشيته . توقف لحظة والتفت لآخر مرة إلى قصر
الحمراء الشامخ على الراجية ، مودعا ، وفاضت دمعة الأمير ، قبل
أن يمضي مطرقا إلى منفاه ، تطارده كلمات أمه خلفه : «ابك يا
ولدي مثل النساء ملكا لم تحافظ عليه مثل الرجال» .
وأصبح المكان الذي فاضت فيه عبرة الوداع الأخيرة لآخر أمراء
الأندلس ، يدعى «زفرة المغربي» .

عدنا ننحدر مع دروب الرياض صامتين . حفيف أوراق
الأشجار الكثيفة السامقة وخرير مياه السواقي الراكضة ، يتخللها
نداء أندلسي بعيد :

قف ————— وا تسمع ————— وا من
جانِب الغي ————— ور أَتت ————— ي
فقد أسمع ————— ت من كان
غير سميع ————— ع

وإن لان بـ _____ رق،
فـ _____ ونـ _____ ار
صبا بـ _____ تي
وإن راح سيـ _____ لـ _____ فهـ _____ و
مـ _____ اء دمـ _____ عـ _____ ي

مع السيول الراكضة وخرير الماء المصاحب خطونا نزلنا إلى
غرناطة.

ولكنني صرت سحابة تحملها الرياح وذاكرة مسافرة في متاهات الضياع، ورقائق التاريخ، وإذا أنا...
..سفر...

سفر
موجٌ يترجمني إلى كل اللغات
وينكسر

موجَّاهًا على كل اللغات
وأُنكسر

وتراً
وتراً

* * *

في هذا الغروب، خذني خارج الزمن!

.. هلا أنشدتني يا رفيقي قصيدة لوركا تحت هذه القناديل

ها قد شرعت القيتارة

۲۲.

وبدون جدوى

سيتهم إسكاته

إنه لشئ مستحيل

محاولته إسكاتها.

إنها تبكي الأشياء

البعيدة

رمم الجنبوب

المتعد

الذي يشتهي أزهار الكاميليا البيضاء

إنها تبكي السهم

الطائش.

كان صوت خليل ، مليئا بعاطفة جياشة يشدو في الدروب الضيقة

المنحدرة ، تحت القناديل المضاءة ، حرقة الشاعر الإسباني القليل

لوركا في قصيدته القيثارة .

*

*

*

هذا مساوئنا الأخير قبل الرحيل إلى قرطبة . أمام النزل ،
استقبلتنا النافورة الباذخة أمام البوابة البلورية العريضة ، تضيء
الليل بسلاسل مائها اللجين ، تدعوننا لموعد الليلة . فبعد مأدبة
العشاء تبدأ الأمسية الشعرية الأخيرة ، في ملتقى شعراء الضفاف .
الأضواء تتلألأ ، من نجفات الكريستال الباذخة في القاعة
الضاحجة الرحيبة ، وأنا أرفع الكأس للضوء المشعشع أمام مائدة
الطعام ، أطفئ حرائق الروح .

فجأة، توقفت بالكأس يدي، وأنا ألمحها تجلس، بعيدا، بالضبط،
في الزاوية القريبة من الباب.

يـا رـب الـكـون!..

أَتَكُونُ هِيَ...!

عشتار؟! تنزل من سماءها!.. نفس العينين الكبيرتين الأسرتين!
نفس الالتفاتة الناعمة المتغنجة! نفس الوجه الصبوح المكابر،
يضيء على الجيد المرمرى، سواد الفستان!

فَزَّ الْجَسَدَ وَاقِفًا . دَفَعَتِ الْكَرْسِيَّ إِلَى الْوَرَاءِ وَعَيْنَايَ مَرشُوقَتَانِ
هَنَّاكَ . اَنْدَفَعْتُ إِلَيْهَا . تَعَثَّرْتُ بَيْنَ الْمَقَاعِدِ وَمَا اعْتَذَرْتُ
لِلْجَلَّاسِ . . بَوَّغْتُ بِهَا تَقِفَ وَتَوَلِّيَ الظَّهْرَ . . تَسْرَعُ الْقَامَةُ الْمَمشُوقَةُ
الْهَيْفَاءَ نَحْوَ الْبَابِ . . مَضَيْتُ مَسْرَعًا خَلْفَهَا ، وَلَكِنَّهَا

اختفت . . تطايرت نظراتي خارج المطعم . . البهو هادئ ، خال إلا
من بعض السياح المسترخين على الأرائك الوثيرة .

هرعت إلى البوابة البلورية . تطلعت إلى الشارع الفسيح . رجعت
إلى البهو . أسرعرت إلى مضيف الاستقبال . كان منشغلا بالهاتف ،
يجيب بالفرنسية على إحدى النزيلات :

— نعم سيدتي ! . . لك ما تريدين ! . . ليلة سعيدة !
قبل أن يضع السماعة بادرته :

— رجاء ، هل تقيم هنا «دجلة العامري»؟

تأملني الموظف لحظة قبل أن يجيب معذرا :

— لا يا سيدي ! لا وجود لهذا الاسم عندنا !

عدت ، بخييتي ، ثقيل الخطو إلى مجلسي .

ما عادت بي رغبة في الطعام ، ولكن عطشي ازداد .

فلأشرب ! . . لأشرب ! علي أرتوي قبل أن أفتح أوراق لي لسهرة
الشعراء المشردين في الأصقاع .

رجعت وحيدا إلى الرفاق . ولكن دجلة ، سبقتني ، إلى

مجلسي ، تطايرت نجوم خاتم الفضة والعنبر حولنا .

عادت دجلة ، أنثى الأضداد ، يكلل ثلج وجهها المضيء السواد

النبيل للفرستان . . جلست أمامي ، مكان الشاعرة الفرنسية

الشقراء ، قرب خليل المقطب ، المتسائل النظرات . كانت متلقّة
بالصمت ترنو إليّ . وجهها يطفو على كل كأس ، بينما صوت
الشاعرة الفرنسية يعلو ضاحكا ، وقد انتشت ، مغرقا العالم في
رنينه الفضي .

*

*

*

والمصدق أمامي ، جالت عينا في قاعة الندوات الخافتة
الأضواء ، العامرة بالمنصتين . . انتظرت أن أراها تعود — دجلة —
أو شبيهتها — إحساس غامض بأنها هنا ، قريبة ، تكاد تلفحني
أنفاسها ، تلك التي اختفت كنيزك ناري . ولكن الجسد النابض
المستهي ينأى ويختفي في مدارات الغياب .

قبل أن أركب جناح الشعر ، سمعت صوتي يعلو ، ثقيل
الشجن ، قائلا :

— أهدي قصائد هذا المساء إلى . . الأوطان الضائعة ، وإلى
. . امرأة الغياب .

علا رنين الباب حادا متواصلا ، ودخل حسام ، حيويا ،
 مرحا ، على غير عادته في الفترة الأخيرة .
 . . منذ متى لم أر حسام بهذه الحماسة وهذا المرح ؟ المرح الذي
 أحببت في البطل الرياضي ، حامل حكمة أثينا التي تمجد الجسد
 وترعاه ليسلم العقل وترقى الروح .
 ولكنني نسيت الحكمة . عنها انشغلت . وما انتبه غرور الروح
 لجدواها ، إلا بعد فوات الأوان .

مر شهران منذ انتهى العلاج الكيميائي الرهيب . بدأت
 شيئا فشيئا أعود لانشغالاتي الماضية . أطلع ما يشدني من كتب
 حديثة . أ ورق الصحف الملوثة بأخبار الجحيم الأرضي وأرميها .
 أفتح أحيانا التلفاز وأشاهد الأخبار الأخيرة . يطل الجرحى
 بدمائهم النازفة ، علي من الشاشة . . يحدق بي القتل
 والشهداء . . تتناثر الأشلاء على مائدة طعامي ، تشق الجرح
 الحديث الالتئام . . أظلم الشاشة العربية المستسلمة لأصابع
 الأخطبوط السرطاني وأدير صفحة الألم .

ولكن الألم ينشب مخالبه في كامل الجسد . . يحفر في قاع الروح .
أنهض — رغما عني — أمسك سلاحى من جديد ، وأعود
أكتب ، وصرختى الهادرة ترتفع في وجه السرطان المفترس
الكوكب الأرضي .

هكذا، عدت أستقوي على ضعفي . الحرف يطرق بعنف
باب الورق ، ناريا ، حارقا ، ينتشر على مساحات البياض مضيئا
الكوكب البائس ، مخدرا ذاكرة الجسد . ولكن ، حين أدخل غرفة
نومي و أغير ملابسى ، تواجهني المرأة . يذبجني العري المخزي .
يعود صدى الهاتف المدين لهذا الجسد : فات الألوان! . . فات
الأوان!

مع المساء يعود حسام . يلاحظ اكتتابى وصمتى ، يتركنى
ويمضى إلى التلفاز ليغرق في أجواء فيلم هزلى أو مباراة رياضية .

ولكن ، الآن ، ها هو يعود مع الليل القادم ، مرحا ودودا ،
ينادينى . يرفع في وجهى ظرفا .
— أحمل لك مفاجأة! . . خمنى ، ما هي؟

تأملته هنيهة، مستغربة. أقباس من نور النجفة، كانت تضيء
قسمات وجهه المنشرح. . مازال الأوان! أوان الدهشة المتجددة
والحياة! . . أعلن وجهه المترقب الجواب.

لم يصبر على تردددي وهو يعلن بزهو :
— هذه تذكرة الطائرة! . . رحلة إلى إسبانيا ينظمها النادي
الرياضي، البرنامج مدهش، ومحدد بدقة من الآن!
مفاجأة، هب صوتي، ببهجة طارئة، سائلا وقد عاد حلم
السفر مشعاً.

— إسبانيا؟؟ و . . الأندلس؟ هل في البرنامج زيارة الأندلس؟
ولكن، سريعا، خبا اندفاعي. عدت مستدركة :
— ولكن، سناء وعلي يدرسان . . والعطلة . .
قاطعني قائلا :

— لا تهتمي! سأبقى أنا هنا، التذكرة لك أنت، سيكون معك
صديقنا أحمد، منسق الرحلة، لن تحتاجي لشيء!
— . . ولكن . .

— لا تنسي أنني أدرب فريقنا. التدريب في أوجه استعدادا للمباراة
القادمة مع فريق فالنسيا . . علينا أن نفوز بالكأس! أضاف مطمئنا،
مشجعا :

— سيتسلى الطفلان بمشاهدة التدريبات ، بعد الدروس ،
والمشاركة في نادي الأطفال الرياضي . . وأنت ، ستتعشك الرحلة ،
تذكري نصيحة الطبيب . . أكيد ، ستعودين أفضل ! . . أفضل لنا
جميعا !

. . وجدتني في عنق حسام ، أطوقه بذراعي الإثنتين بقوة ،
وأقبله شاكرة ، وقد اغرورقت عيناى دموعا .

حين أتت سلمى ، استبشرت بالخبر ، وبددت مخاوى
بخصوص طفلى ، مؤكدة أنها سترعاها أثناء غيابى .
بعد خروجها ، ومضى خاطر ، أيقظ الشجن الدفين . لقد كان
حسام وسلمى يجازيانى على هديتى التى رفضاها بـ . . الرحيل . .

ارتفع صوت المضيضة الفضي داعيا إلى الباب الذي انفتح
إلى ممر العبور . بعد دقائق ، تقلع الطائرة إلى مدريد . وقتها ، خارج
القاعة البلورية الجدران ، بدأ الرذاذ يهمني على جناحي الطائرة
الرابضة تحت السماء المشرقة .

وجدتني ، متوحدة ، بأشواقي ودهشتي وارتبائي
المنتشي ، في البرزخ ، بين عالمين . تنخطف الروح والطائرة تنفصل
عن الأرض وتعلو في الفضاء . يسمح الرذاذ الملتصع من النوافذ
الصغيرة ، ذاكرة الضياع والفقد .

أنسى حقيبتني الصغيرة في حضني ، أوراقتي وأدويتي . . أنسى
أقنعتي : الباروكة ، زينتي ، الكحل الرفيع ، بديلي من
الرموش . . أنساني ! فأنا راحلة إلى زمن بكر وتجربة وليدة مع
الأرض والبشر والكائنات .

والطائرة تعلو في معراجها ، تتوارى تضاريس الأرض وتختفي ،
تركني أحلق على قطن الغيم الأبيض ، راحلة إلى زمان الوصل
بالأندلس .

تطل المضيضة على برزخي ، تسألني باسمه :

— ماذا تشربين سيدتي؟

بابتسامة خاطفة، أشير إلى العصير، وأعود أطل على الأرض
الملتفة بالغمام المتلامع مع قرص الشمس القريب .

على جناح الغيم أمضي، أشق جبال السيرانافادا، شوارع
قرطبة، جنان إشبيلية وغرناطة، أصحاب ابن زيدون وولادة، ابن
هانيء وابن العربي، وابن رشد، تاركة زمني، تاركة جسدي .
أمضي إلى عالم آخر، قد يكون لي فيه جسد آخر وميلاد جديد .

أخيرا، أجدني خارج المطار، على الأرض .

تلتمع شوارع مدريد الفسيحة المبللة بالمطر، والحافلة المكيفة المرفهة
تطير بنا — بعد ليلة أولى بمدريد — خارج العمران، إلى طريق
الجنوب . تشق حقول عباد الشمس المشرقة، بساتين البرتقال
والزيتون . ترتفع بين الوديان مع جبال السيرانافادا الشاهقة .

تمد الأرض المخضرة المختالة أذرعها إلي، تصالحني . ترتفع أنغام
الفلامنكو من مسجل الحافلة، عالية، توقظ الشهوات النائمة
الحجولة . تنطلق من حين لآخر أصوات رفاق الرحلة المرحة .
تعلو النكات والضحكات والأكف المصفقة توقع مع النغم
الإسباني الراقص .

لا مبالية بطول الرحلة ، متشحة بروعة ألوان الأرض
الباذخة ، . . بعذوبة النسيان الملون البراق ، شارفنا غرناطة . على
الجبال ، أطلت بيوت بيضاء متناثرة . حيّانا سعف نخلات
وحيدات . . وأقبلت العلامة المعلقة الكبيرة على الطريق . .

غرناطــــــــــــــــة

Granada

هي ذي غرناطة ! آخر معاقل العرب بالأندلس ، مدينة الألف
بستاني في جنان العريف .
.. القلب يدق بقوة . . امرأة أخرى أصبحت ، عاشقة ، مأخوذة ،
تدخل جنة العرب الماضية .

انفتحت البوابة البلورية العريضة على مصراعيها لجمعنا
وتقدم أعوان الاستقبال في لباسهم الأحمر المذهب الأنيق ، يأخذون
الحقائب وينحنون بحفاوة مرحبين ، يعيدون للروح وهج الحياة
المشع وجاذبية المجهول .

*

*

*

أكنت أتصور أن يعيدني المجهول إلى المفترق؟ ويعري الذاكرة
الطائرة إلى ذرى النسيان؟

وقفت في البهو ، أتلقي مفتاح غرفتي وأهم بالصعود لاستراحة قصيرة قبل العشاء ، حين استوقفتني معلقة كبيرة على ارتفاع الجدار . سطعت تحت الأضواء كلمة Poètes بالحروف اللاتينية العريضة . كان الإعلان الضخم مكتوبا بالإسبانية والفرنسية والإنجليزية ، يدعو الزائرين لسهرة الليلة : «أمسية شعرية بقاعة المحاضرات مع شعراء الضفاف» .

أغرنتي الدعوة ، ودنوت أقرأ أسماء الشعراء المشاركين . توقفت متثبته ، عند اسم أعرفه : غسان سلمان . أعدت القراءة . غسان سلمان . . فلسطين .

لاحظني مضيف الاستقبال . اقترب مقتحما دهشتي :
— إنها الأمسية الأخيرة سيدتي ! غدا يسافر الشعراء .

دون جواب ، بارتباك ، صعدت إلى غرفتي . في المرأة ، شاهدت دجلة في مواجهتي . تركتها سريعا ونزلت إلى رفاق السفر ، لقد آن موعد العشاء .

كانت الأضواء تتلأأ ، والقاعة الرحبية تعج بالرواد . اخترت مجلسي قرب الباب ، مقابل مرايا العمود الملتف بخضرة النبات المتسلق النضر . هتف أحمد منسق الرحلة ، بمرحه المعتاد :

— أنسي جمعنا ! لم أنت منزوية في طرف المائدة؟

ابتسمت مجاملة ، وعاد نظري يحول في القاعة الضاحجة بالطاعمين .

فجأة ، شاهدته ، في الطرف البعيد من القاعة ، يرفع
الكأس لجلسه . هو ذا غسان ! مطاردي بهواتفه ! شاعر الأرض
والهوى ، الذي قرأت بمتعة كل كتاباته وأحببت كلماته قبل لقيائه ،
هو ذا عاشق الأرض والجسد ! على بعد أمتار يعب كأسه دفعة
واحدة ، يملؤها ثانية . تجول نظراته في القاعة الفسيحة ، وتتوقف
ناحيتي . تواريت خلف العمود المقابل . خفضت رأسي ،
وتظاهرت بالانشغال «بالبايلا» الإسبانية الشهية في طبقتي . ولكن
قائمة الفدائي القديم استقامت . وقفت ممشوقة مهيبة تتطلع
ناحيتي . تركز نظره على وجهي . علا وجيب القلب وخطواته
الواثقة تتقدم في اتجاهي ، تستفز الجسد المتظاهر بالجلوس إلى مائدة
النسيان .

*

*

*

وها أنا ، غريبة ، متوحدة ، في ليل غرناطة ، مسافرة في
الملكوت ، بلا ماض ، بلا آت . يقف في مواجهتي ، يركز في عينيه
الغائرتين الكبيرتين . . يكهربي . . بلهفة وشهوانية ، تنفرج شفتاه
النديتان ، يهتف بصوته العميق :

— دجلة!! يا للمفاجأة!!.. أهلا بك!!.. متى أتيت؟

ويمد بحرارة الأرض يده .

تغرق عيناى فى بحر عينيه الهادر المشع . أمام ناره الملهبة ، أعود طفلة مقرورة .

بقوة وجسارة يشد يدي . يسحبني بعيدا عن العيون . يظللني قمحه العالي ، تنهال شفتاه الشمسيتان تهيمان فى وجهي ، تنحدران حارتين ، ويثدين إلى جيدي المستسلم النابض العروق ، يد على خصري ، ويد ، بحنان غامر ، تستكين كفها الكبيرة خلف رأسي . تجول أناملها فى ليل شعري ، سابحة ، مداعبة ، تقود الحواس المرتبكة إلى ذرى النشوة . نشوة النسيان . ارتفعت يدي — مرتبكة — تسوي شعري المتناثر بين يديه .

انتبهت بغتة . الباروكة تكبس علي عروقي ، تفضح زيف أقنعتي ، وتسقط عن رأسي الباردة الصلعاء .

*

*

*

يهرع غسان نحوي ، يتعثر بين الجالسين ، يستقيم سريعا طائرا كسهم إلي .

مسرعة ، دفعت مقعدي خلفي ، وركضت خارجة . فى البهو ، شاهدت المصعد يفتح . طرت إليه وضغطت على الرقم ٥ .

أخيرا، انغلق علي الباب المعدني .

في المصعد، وجدت غسان قبالي . ظل يحدق في ، يعيدني إلى الأرض التي تركتها وإلى الصدى الذي أهرب منه . يعري الأرض المكشوفة يمزق تذكرة السفر ويطعمها نار نسيان مستحيل .

حالما دخلت الغرفة، ومض خاطر : ماذا لو سأل عني

غسان ؟

ارتميت على سماعة الهاتف ورجوت مضيف الاستقبال كتمان وجودي لو سأل عني أحد . أخيرا، تنفست الصعداء وأنا أستلقي على السرير .

هذه ليلتي الأولى ، في غرناطة . ولكن أي صدفة عبثية جعلتني أصطدم بغسان في ليلتي الأولى مع النسيان؟ ليلة كنت أبحث فيها عن دهشة المجهول تضيء الوجود، بعيدا عن ذاكرة جسدي المبتور .

انتبهت إلى جرس الهاتف يرن ملحا، متواصلا، والساعة تعلن : التاسعة والنصف . توجست خيفة، ولكن، حين رفعت السماعة، جاءني صوت أحمد مطمئنا . لقد حان موعد السهرة والجميع ينتظرنني للخروج .

رغما عني ، وجدتني أمر على قاعة المحاضرات . توقفت
غير بعيد عن المدخل . لقد بدأت منذ نصف ساعة الأمسية
العشرية ، الوقت الذي قدرته لعدم الالتقاء بغسان عند النزول .
بدت من الباب الموارب ، إنارة شاعرية خافتة ، وتسلسل للرواق
صدى صوت عميق أبج ، بلغة الضاد ينشد ، ذابح الأسى :

سَفَرُ

سَفَرُ

سَفَرُ يترجمني إلى كل
اللغات

وينكسرُ

موجعا على كل
اللغات

وأنكسرُ

وتقرأُ

وتقرأُ

سَفَرُ

سَفَرُ

إنه هو! . . غسان سلمان!

كان يقرأ من ديوانه الجديد عن الغربة والمدن السليبية والقتل اليومي المباح . ولكن القصيدة تتكثف . تتمرد ، وترقى ، لتفتح على أبعاد كونية جديدة مدهشة . تصبح لأولوة سوداء تضيء أعماق الإنسان ، تواسيه أنغامها العذبة الجارحة . انتبهت إلى التصفيق يرج القاعة وقد انتهت القصيدة وصمت غسان .

فجأة ، أمسكت يد ذراعي . التفت لأجد أحمد خلفي وقد ضبطني متلبسة .

— هل أغواك الشعر من جديد ، لتتركي سهرة خارقة مع الفلامنكو؟

— المَعذرة! ولكن . .

— للجسد العجري الراقص شعره الجميل أيضا ، وهذه فرصة ثمينة لاكتشافه .

تقدم أمامي مسرعا ، قبل أن يلتفت قائلا بمكر ضاحك :

— نحن في انتظارك سيدتي . . إن رغبت في المجيء .

تماسكت ، وأنا ألقى خلفي أوراق ذاكرة مضرجة بدمي .

وانطلقت خطاي مسرعة ، خلف أحمد ، لنلحق برفاق الرحلة المنتظرين على الرصيف .

تمشينا زرافات ووحدانا على الرصيف الفسيح ، تلفح وجوهنا
أنسام الليل الندية وينعشنا شدة ماء النوافير في الشوارع الرحبية .
— هذه غرناطة! عاصمة بني الأحمر ، التي رحل عنها المسلمون
منذ خمسة قرون وأجبر على التنصر من بقي
بالديار . . غرناطة! granada ، أي الرمان بالإسبانية!
ارتفع صوت أحمد الحيوي عاليا ، مليئا بالغبطة ، وهو يتوقف أمام
سلسلة نوافير تتعالى زخاتها شماريح ضوء تنتشر في مساء غرناطة ،
تغازل وارف الشجر المكعب على امتداد الطريق . تسري بهجة الماء
الراقص في الأرواح ، تقدح نشوة الانطلاق المسائي إلى المجهول .
تعلو الأصوات نشوى بالغناء ، والطرقات تقودنا إلى قلب
غرناطة . تنشق الرمانة عن حبات اللؤلؤ والمرجان ، ونحن نمضي
صاعدين الدروب المبلطة الضيقة ، تحت القناديل المزخرفة المعلقة
على الجدران .

— هذا حي البيسين! وهناك في أعلى الربوة ، قصر الحمراء!
انطلق صوت أحمد موضحا .

أمام جنيئة إحدى البيوت البيضاء ، كانت رمانة خمزية ناضجة
يشكلها الفسيفساء العتيق على الثرى .

نرتقي الدروب العتيقة بين الجدران المتقاربة البيضاء ،
تعود بالذاكرة إلى المدن العربية العتيقة ، تنضاف إليها الخضرة
الباذخة تتدلى من النوافذ والشرفات الصغيرة . يلامس السمار ،
القرنفل القرمزي والأبيض والزهري ، ويعبق الحي بربيع مازال
يشدو بأشعار أندلس ماضية .
تنضح الرمانة الحمراء بالعسل ، والدروب تصعد بنا في حي
البيسين .

متشحة بصمتي ، صعدت الدرج الحجري . في آخر
الزقاق ، بدت لنا عجربة حسناء مشرقة بفستان التفات الأحمر المجنح
الأطراف . كانت في انتظارنا أمام باب المسرح الصغير ، فالسهرة
اليوم لنا ، والقاعة الصغيرة لا تسع أكثر من فريق .

تقدم أحمد ، خافضا رأسه ، وهو يدلف من الباب المقوس
الصغير . مغارة علي بابا تنفتح وباحة صغيرة تضيق بنا ، سقفها
نجوم السماء ، تحبى جرارها والقلال وأصص الفخار مستكينة إلى
الجدران ، تفيض بخضرة الرياحين المتدللية على الأرض والمتسلقة
الحيطان . تتثال فروع ياسمين مزهرة على قوس باب واطى مقابل ،
يهفهف فوقه ستار مخطط بزاهي الألوان .

ارتفع الستار لندخل قبوا طويلا ، يسطع في سقفه المقوس
الضوء ، وتشعشع على جدرانه البيضاء أطباق مزخرفة وصحون
منقوشة ومغارف كبيرة ، من النحاس . في ضجة طفولية مرحة ،
جلسنا على الكراسي المصففة ، العيون تجول بالدهشة في أرجاء
القاعة ، والذاكرة تعود ببعضنا إلى بيت الأجداد ، تختبئ في
مقاصيره ، وتلهو في أقبيته ، وتضرب لاعبة على أصناجه وأوانيه
النحاسية .

توقظني من ذهولي ، ضربة الوتر الأولى عالية ، معلنة
موعد السفر الفجري مع الطرب .
تتعلق العيون بالمنصة البسيطة العالية ، حيث جلس العازفون
الثلاثة ، فالآن ، تبدأ قصة أخرى ، قصة الغجر ترويحها الأوتار .
ترقص أوتار الفيتار تهز الأرض . توقع آلات البندور تصاحب
النغم . يتقدم المغني الشاب في لباسه الأسود المثير ، شاديا بصوته
القوي الشجي . كفاه تصفقان مع الإيقاع ، تستقبلان الراقصة
العجربة القادمة ، زهرة القرنفل الحمراء الحارقة مرشوقة خلف
الأذن ، والشعر الأسود المشدود يعلو الرأس بكبرياء . يضيق
الخصر الرشيق والصدر النافر بفستان التفتا الأحمر المجنح

الأطراف . يَحْتال ذيل الطاووس خلفها . تضرب الأقدام الأرض
موقعة مع النغم المتسارع . يصرخ الجسد الموتور في رقصة الألم
والشوق الحارق ، وصوت المغني الشجي يعلو وتموج نبراته
بأصداء شلالات السيرانافادا ووديانه وقممه . . موجات عالية
منتشبة تطير ذيل الطاووس . ليزداد ضرب الأقدام حدة وعنفا ،
ويتلأأ الألم بجبات العرق على وجه الراقصة الصبوح .

تشد العجرية ذيل الطاووس الشائر متقدمة . قدمها
تقدحان نار الشرر ، وأنغام الفلامنكو تصدح عالية ، متسارعة ،
طربة . تعلو صيحات فارسها مشجعة ، جذلة ، يتطاير من كفيه
المصفقين الشرر .

يصيبي شرر الطرب الحارق ، أشد ذيل فستاني ،
بأصابعي المتوترة . وعلى مقعدي ، أضرب مع الإيقاع الأرض
بقدمي . أضرب أرضا تستيقظ وتهتز ، مع النغم الطروب ، في كفي
نار ، وفي الأقدام شرر ينتشر .

تنسحب الراقصة العجرية ، تحت حرارة التصفيق . ينحني
المغني الراقص محيا . ينزل من منصته للجمهور .

وحيدا، بيننا، عاد يرقص مع رنات الفيتار . تتطاير خصلات
شعره الأسود على جبينه الوضاح . يقرع الأرض بخطواته الراقصة
المتسارعة . . يطرقني . . حريق الصحراء في قدميه يلفحني . . يطوح
بي . . يمزج دمه بدمي ، وأوتار الفيتارة تتوجع بشجن غامض ،
حارق ، عتيق .

ينساب جسدي ، في نشوة النغم ، منطلقا ، موتورا ،
ضاربا الأرض مع الإيقاع العاصف . . يدنو الراقص الطائر في
البدلة السوداء . . يبصرني . . تمتد يده إلي ، تمسك بيدي ، ترفعها
إلى السماء ، ترفعني . . تدور بي . . تدور . . تدور . . تطير . .
تعلمني كيف ينسى الأندلسي قصة ألمه ويضرب بكل عنف عذابه
الدفين .

ما عدت أرى الحاضرين ، وقد ارتفع حولنا الهتاف واحتد
التصفيق .

مع منتصف الليل ، واقترب الرجوع ، في لحظة خاطفة ،
مرطيف غسان . . كان يطير رفقة خلانه ، مع الكلمات ، في نزل
«النجوم» . وكنت ، في قبو حي البيسين ، مع الغجر الراقصين ،
أضرب الأرض بقدمي . أضرب الأرض

القاسية . . أدور . . أطي . . يداي المتوترتان توقعان مع أنغام
الفلامنكو الشجية الحارقة ، وأقدامى تضرب الذاكرة ، والجسد
يغزو طليقا ملكوت اللذة والانتشاء .

أوتار الفيتارة تنشر أصداء الزمن البهي البعيد ، قبل أن ينداح النغم
ويرق شيئاً فشيئاً . . يرق . . يرق . . حتى ضربة الوتر الأخيرة .

* * *

بعد منتصف الليل ، انهذ جسدي على السرير . ولكن
عيني ظلنا مفتوحتين ، تتابعان أضواء سرية خضراء تحرس الهضبة
العالية البعيدة حيث يجثم قصر الحمراء المستسلم لهدأة الليل
الأخيرة .

عند الفجر ، سمعت أصواتا خافتة في الرواق ، تجر خلفها
الحقائب ، وتناهى إلي صوت محرك حافلة يشتغل . انتبهت فجأة
وأنا أتذكر : هذا الفجر ، يرحل الشعراء .

دنوت من النافذة . من أمام الستار الشفاف ، من الطابق الخامس ،
شاهدت غسان ، أمام الحافلة ، يدفع حقيبته الصغيرة أمامه ،
ويستعد للركوب .

سأمسك بالتفاحة ملء يدي! أغرس أسناني في قلب الثمرة الشهية
الناضجة! أتلعض الحلاوة العبقرة الباقية في أرض مازالت تمور
بالحياة!

قلت، وأنا أتذكر صوت الحكيم المودع في آخر لقاء: «تمتعي
بحياتك!»، والطائرة ترتفع بنا، عائدة إلى تونس.
سأمسك التفاحة ملء يدي!
هكذا، بأمل ولید خافق، نزلت في مطار قرطاج، مفعمة بالحياة،
رغم مرارة باقية في قاع الروح.

طار إلي علي وسناء حالما شاهداني في المطار. العيون
تفيض شوقاً ومحبة. ارتميا معا في عنقي. أقبل خلفهما حسام
ومزيج من الشوق والفرح والعتاب المبهم يرتع في عينيه.
— حمدا لله على السلامة.
قال وهو يأخذ عني متاع السفر.

*

*

*

تراكضت الشهور بعدها . غرست أظافري في التفاحة
الناضجة بقوة . ألقيتني للعمل والحياة بنهم وجنون . عدت
أكتب . استجبت أخيرا للمشاركة في ندوة دولية شدني عنوانها
«شهرزاد وأسرار الكتابة» ، بيت الحكمة . من جديد ، التقيت
بغسان . لم أتوار هذه المرة عن عينيه الجريئتين المتشبهتين بي .
ولكنني أسدلت ستائري عن أسمى وشم الروح والجسد .

التفاحة بين يدي أصبحت أكثر نضارة وشدى وإغراء ، رغم كلوم
الروح . . رغم وخز الجرح المخيط العائد مع البرد والوحدة والخلوة
مع حسام . ولكن ، على الفراش ، أمسيت أغمرني بجمر تحد جديد
لأكفر عن خيانة الجسد ولو تقنع نصفه بسميك اللباس .

عدت إلى روايتي وقد احتد العنفوان . وأنا أدخل مدارات
الرعب والخراب في فصولها ، تساءلت :

— ألا بد أن أقتلَ أو أُقتلَ ، ليسيل دمي حبرا يخط بياض الورق ؟

. . . ولكنه أيضا يخط سطور الحياة !

هكذا ألقيتني إلى نهر الحياة الجارف ، مولية ظهري لمواعيد تطاردني
وأتناساها ، باسم مراقبة خبايا الجسد .

خارج الحكمة

١

لقيتها أخيرا .

ها هي دجلة ، تتصدر المنصة ، بعد عام من الغياب ، وضاء الوجه ، يكللها غموض أسر جذاب .

تقدمت أبحث عن مقعد شاغر في القاعة التي امتلأت بالحاضرين ،
ببيت الحكمة .

أخيرا ، جلست ، عيناى على وجهها ، تنتظران بشوق شهادتها
الأخيرة .

لكم تغيرت خلال عام ! . . هالتا سواد ، تحيطان بالعينين
اللوزيتين الكحيلتين . وشعلة التحدي في عيني الغزالة ، فقدت
ألقها القديم . الجسد ازداد اكتنازا ، والخيلاء خبا . أمست دجلة
ذابلة العنفوان ، رغم كبرياء فطري يرفع رأسها عاليا على الدوام .
. . ارتفع صوتها في المصحح . تعلق ببحه الدفء ، يضفي على
صوتها عذوبة جارحة ، وهي تقدم شهادتها عن الكتابة .

. . الكتابة هي الإبحار في لجج البحر المائج : الحياة! . . الإمساك
بقوة باللجة الهادرة . الغوص في أعماق اليمّ الصاخب . ذاك
الإبحار ، يحول الجسد الذاوي المنهك إلى عاصفة . . إلى زلزال ،
يقلّب الأرض ، ويبعث الحيات المدفونة تحت المدن المظلمة العفنة .
هكذا كنت ، بالكتابة أعود من سقوطي ، أقاوم و أفتح من
جديد دفاتري . الجسد خادمي . ملكة أرفع صولجاني . . يصبح
الكون طيعا ، بكرا ، هيولي في يدي تنتظر التشكيل الجديد

كنت أصغي إلى صوتها العذب الرقراق . أتأمل ملامح
الوجه الصبوح . أتعلق بنجوم شاردة من خاتم الفضة في يدها ،
ياخذني لذاكرة بعيدة . عام أو أكثر ، لم تنفع هواتفني لاستعادة
صوتها الأسر ، لإسكات شوق مبهم إلى شبيهة أم اختفت من زمن
بعيد .

وها هي الآن تعود! تضيء المكان بجمالها القاهر ، بصوتها
المفعم بتحد جديد ، وهي ترفع كلماتها — سلاحها — كما تقول
في وجه الخراب ، في وجه الموت . . تعود دجلة ، تذكي بحضورها ،
شوقي المكتوم . . يتصلب الجسد النّافذ صبره على مقعده ، وأقرر

حالما تنتهي الندوة، سأمسك يدها وأدعوها لشرب نخب هذا اللقاء في مقهى على الشاطئ.

انتظرت انتهاء الندوة، شوقي عارم وأسئلتني أضحت حارقة. أين اختفت طيلة عام؟.. هل هي التي خطرت أمامي واختفت كطيف في بلاد الأندلس؟.. وما الذي فعلت برواية، جاءت إلى مركز الأبحاث الفلسطيني باحثة سائلة، لتكتب بعض فصولها بدمنا المهدور؟..

حالما انتهت الجلسة، اقتحمت حولها الزحام. الأسئلة تتطاير على طرف اللسان. حين لمحتني، التمع الألق الندي في عينيها الوسيعتين. بادرني بالسلام، بابتهاج وألفة :
— مرحبا غسان!.. كيف حالك؟

أسرعت معلنا إعجابي : — شهادتك رائعة! إن رغبت، سأنشرها في مجلة الكرمل.

ببهجة طفولية، شكرت اهتمامي. هنيهة فقط، نظرت بعدها في ساعتها وأسرعت مراوغة، تعتذر عن البقاء، متعللة بموعد هام يكاد يفوت.

خرجت وحيدا ، لاعنا هذا الحظ الذي حرمني ساعة مع
امرأة قاهرة ، ساحرة ، تسكت هذا الشوق الحارق ، وتضيء دجى
غربة جسدي الوحيد .

تركت السيارة رابضة أمام حديقة بيت الحكمة ، وتمشيت
محاذيا الشاطئ ، في يدي صحيفة «الوطن» التي مدني بها بعض
الرفاق القادمين من الخارج ، ومنعت من دخول التراب التونسي ،
لإضافة بعض مقالاتها إلى أرشيف الصحف في مكتب الأبحاث .
دلفت إلى أول مقهى بحري ، أشعلت سيجارة . وفي وحدتي ،
فتحت صحيفة «الوطن» . جالت عيناى بين العناوين «مذبحة
مستمرة» . «إسرائيلي فل في
أحضان أمريكا» . «مخطط ط
خطير : في ذكرى
إحراق المسجد الأقصى» .

توقفت أقرأ :

«في ذكرى إحراق المسجد الأقصى ، على يد أحد الصهاينة
في ٢١/٠٨/١٩٦٩ ، أعلن تقرير مؤسسة القدس العربية عن
مخطط خطير سري للكيان الصهيوني ، الغاية منه تحقيق السيطرة

الكاملة على المسجد الأقصى ، وبناء الهيكل المقدس . . في المخطط الذي قد يكون بدأ ، وقد يؤدي إلى انهيار المسجد الأقصى :

— حفر أنفاق وممرات ومعابر تصل بين نفق ونفق على عمق أزيد من ١٢ مترا . . سيلتهم المخطط المساحات العربية كحارة المغاربة وحارة الأرمن .

— سيقوم الاحتلال بخلق مجال أمني إلكتروني قائم على شبكة من الكاميرات وأجهزة الرؤية الليلية والمجسات التي تسمح بمراقبة دقيقة ومحكمة للمسجد ومحيطه . .

— ستقام أعمال إنشائية لوصول ساحة البراق (المبكى) مكان تعبد اليهود ، بالمسجد مباشرة من خلال جسر يصلها بباب المغاربة .

— سيقع إثبات «حق اليهودي» في الصلاة وإقامة الطقوس في المسجد الأقصى» .

سحقت السيجارة ، بحدة ، في المنفضة . أشعلت ثانية ، وواصلت القراءة ، مع احتراق السجائر . طلبت كأسا ثانية من النبيذ .

«مسلسل التطبيع التونسي مع العدو الصهيوني» :

الحلقة الأولى : بدأت يوم ٢٥ نوفمبر ١٩٨٥ ، شهرين فقط بعد العدوان الإسرائيلي على تونس . عنوان الحلقة :

تجاري :

أرست بميناء تونس سفينة الشحن الصهيونية «سان ألبان»
قادمة من ميناء أشدود الصهيوني ، يرفرف فوقها — للتمويه —
علم ألمانيا الاتحادية ، تحمل على متنها ٥٠٠ طن من البن الإسرائيلي
لتونس .

الحلقة الثانية : عنوانها طبي :

«توسطت جمعية أبحاث السرطان الفرنسية ، بعد سنتين من
الغارة على حمام الشط (١٩٨٧) بين معهد وايزمان للأبحاث
الصهيوني ومعهد صالح عزيز التونسي ، بأبحاث مشتركة في
السرطان» .

حجر توقف في الحلق ، ألقيت ناقما الصحيفة على طرف
الطاولة . . «ألم يدر الموقعون على الاتفاق أن بني صهيون أخطر
أنواع السرطان؟» .

السرطان الإسرائيلي هنا!!! يتسلل ، نجبته ، إلى قرطاج عليسة!!

تذكرت بغتة عليستي ! أميرة قرطاج ! دجلة! . . تذكرت
وجهها الغامض الذابل . . تذكرت الطيف الذي خطر
واختفى . . بحة الأسى والشجن في صوتها العذب الرقراق . .

السرطان هنا ، ينخر التربة ، تحت أقدامي !

دفعت كرسيي . رميت ثمن ما شربت ، واندفعت خارجا ،
ثائر غضبي ، هادر شوقي . مضيت واثق الخطى إلى
سيارتي . . سأطلبها هذا المساء ! . . سأستعيد بعض اطمئنان تحرمه
عليّ !

في اندفاعي إلى المجهول ، كادت السيارة الطائفة تنقلب
بي . . حين استويت أخيرا على الطريق ، كان الليل المدلهم قد غمر
الأرض . انتبهت إلى أنني كنت أقود السيارة ، بلا أضواء .

توالى رنين الهاتف وأنا في المطبخ أعد العشاء . حين رفعت
 السماعه ، فوجئت بغسان ، يسأل عن أخباري ، ويطلب مقابلي .
 طمأنته واعتذرت عن لقاء قريب لانشغالي هذه الأيام .
 — لقاء الصدفة أجمل ! أليس كذلك يا غسان ؟ . . لنترك القدر
 يسطر لقاءنا القادم !
 قلت له مودعة .

قبل هاتفه ، أقبل نحوي حسام رافعا في وجهي ورقة
 اليومية التي انتزعها في غيابي ، هذا الصباح .
 — غدا موعدك . هل نسيت ؟
 هو ذا حسام ! . . حارسي ! يشد جناحي المرفرفين ، يعيدني إلى
 رخام الزمن . . أكان يمكن قطع الذاكرة الماضية إلى الأبد؟ وعدم
 العودة إلى د . سليم ؟ !
 — هل أرافقك ؟ لا شغل لي صباح غد .
 — لا داعي لذلك . سأمضي بمفردي .

أختار المضي — وحيدة — في دروب الجسد الموشوم
 بمشط الجراح . تحترق قلقي كلماته الأخيرة : «تمتعي بحياتك!»

ألقاها يومها بحوية وعيناه تومضان ببريق نفاذ، وهو يشد بقوة
يدي، مودعا عند الباب .

مغازل دائم للحياة، يستقبلني دوما بنشاطه المثير . حالما
انفتح باب مكتبه، تقدم مسلما، مناديا باسمي :
— مرحبا دجلة! ها قد عدت مشرقة، جذابة، كعادتك! تفضلي!
وأنا أجلس قبالتة، على الأريكة الجلدية السوداء، استعاد دور
الفاحص الباحث عن العلل :
— والآن، كيف الحال؟

*

*

*

بعد الفحص الدقيق، خرجت من عنده إلى الشارع .
كانت الشمس باردة، نائية . تركتها ودلفت إلى مركز التصوير،
منفذة طلب د. سليم : الكشف من جديد . كشف بالأشعة
وكشف بالصوت والصدى، للشدي أولا، وثانيا للرحم . فقد
يفترش الداء كل أراضي . .
ربت على خدي قبل خروجي، قائلا : « فقط . . للاطمئنان! »

في الممرات الشاحبة المضاءة وجدتني أهيم في ارتبائي
وقلقي، بين مرتدي البياض المسرعين في صمت، بين غرف
الكشف والتصوير .

أخيرا، نزل الستار الأخضر وانغلق الباب . أقبل الحكيم
الغريب، من باب ثان خاص في آخر الغرفة الضيقة . لا مباليا،
ألقي سلامه . شددت الملاءة البيضاء علي، أستر عريي في انتظار
الكشف . جلس على الكرسي الدوار، قربي، أمام الشاشة
المضاءة . دنت العدسة اللاقطة . وانكمش الجسد على خوفه . .

— من فضلك ! استرخي واستريح سيدي !

يقول الطبيب . . غصبا، تقتحمني العدسة اللاقطة، تجول داخلي،
تغزو رحمي، يد تمسك مقبضها، واليد الأخرى تسجل الملاحظات
على دفترتي وعيناي مثبتتان على الشاشة القريبة، تكشف خبايا
الجسد الممدد على الطاولة . تسمر النظر على كتل صغيرة
سوداء . . ارتعش صوتي سائلا وقد توقفت الصورة، وانهمك
الحكيم يخط الملاحظات . بكلمات مبهمه، حيادية، كان يجيب،
كلما توقفت الصور وارتفع السؤال : « هكذا ! . . إنها
الهرمونات ! . . »

الهرمونات! فوضاها! ثورتها! تتحدى معاني الذكورة والأنوثة،
وتشكل عالما جديدا، شاذا من الأكياس والكتل، يقتحم الرحم،
يعربد فيه كيفما يشاء.

* * *

عاد فجأة صوت د. سليم زيارة بعيدة ماضية :

— الآن، يوجد دواء ناجع ضروري لمقاومة مرض الشدي. من
سليباته، أنه قد يؤثر على الرحم، بنسبة ١ في ١٠ آلاف. وأضاف
بنبرة محايدة : — من واجبي إعلام المريضة، لترفض أو توافق على
تناول الدواء.

ولكن، على شفتيه المطبقتين، كنت أقرأ كلمات ثانية :
«أجل! من واجبي! فكل معالم أنوثتك مدانة، وكل أراضيك
مهددة بالخراب!»

يومها، وافقت على تناول الدواء الشافي.

— سأفحصك من جديد، للتأكد.

قال بعد الاطلاع على الصور التي عدت بها إليه.

* * *

انتشرت غربان ملاً حفيف أجنحتها قاعة الفحص . ظلت
تحوم حول الجسد الممتد في عرائه أمام قرص الشمس الباردة
المتفرجة من وراء الستار .

أخيراً ، نزع القفازات التي كانت تجول مع أصابعه
الباحثة داخلي . رماها إلى سلة المهملات . ومضى إلى مكتبه في
انتظاري . حديق برهة في وجهي ، قبل أن يقول ، جامد الملامح :
— الأفضل ، إجراء عملية . . سترتاحين بعد عملية استئصال
الرحم .

وئد صوتي في الحلق ، ونظراتي تتوقف على شفثيه . أضاف ، مخففاً
صدمتي ، بكلماته المتقاة :
— تأكدي أنه أفضل حل ، عند إصابته . . الرحم ، عدا الحمل ، لا
دور له !

— . . ولكن ، . . هل . . ؟

تجاوز مسرعا السؤال :

— لك الآن طفلان ! إذن ، ما الجدوى من إبقائه؟ . . أترغبين في
أطفال آخرين؟ . . الآن ، في أمريكا ، يُستأصلُ الرحم ، كوقاية ،
للتخلص من مصدر ممكن لمعاناة البشر .

حملت في وجهه المشدود المورد، في عينيه الزرقاوين
الكاويتين . . استئصال للتخلص من معاناة البشر!!! . . إلقاء
الرحم في الزباله وقاية!!! أي دعوة أمريكية بشعة لحفظ صحة
البشر؟ . . لآتحول إلى جنس هجين!

. . الاستئصال وقاية في العصر الأمريكي!!!

تطairت صور خاطفة في الذاكرة . .

أطياف هنود حمر مطاردين ، لتطهير الأرض للبيض القادمين!
صور أطفال عرب حفاة، باكين، مهجرين على مشارف
فلسطين .

مجنزرات وجرافات، على أعناق الشجر والمساكن
والبشر . . سريعة، توالى صور الاستئصال البشري!

وامتدت أيادي أخطبوط مخيف يستأصل الأرحام . يقدم لي — في
الضوء — دعوة للخلاص، وينشب، في الظلمة، أنيابه ومخالبه
لافتراس أراضيه .

انتبهت للحكيم يد يده البيضاء، مودعا، موصيا :

— فكري وهاتفيني! . . لا تتجاوزي الأسبوع!

كان ألم حاد ينشب أنيابه في حشاي . . أكان حقا ألم الجسد المهدد
بالتقطيع؟ أم ألم الروح الذابح؟؟

*

*

*

في طريق العودة، هب سؤال ملتان يهز أعطاف الروح :

— أه يا دجلة! لم تباع أنوثتك بالأقساط؟؟؟

. . ولكن . . ! ألم أشارك بطريقة ما في سوق البيع؟!

ألم يزه خيلائي بأوهام تحرر من آدمية أسرة توثقني بالطين، معلنة
إنسانيتي خارج أنوثة الجنس وذكورته؟

ألم أقايض الأنوثة بجنون الأدب وأوهام الخلق والألوهية؟!

*

*

*

نزلت من سيارة الأجرة، ومشيت . . ثقيل خطوي . . مشيت
طويلا، أحمل ملفي بيدي . . أخيرا وصلت . توقفت أمام الباب
برهة قبل أن أضغط على الجرس . كيف سأعلن الخبر
لحسام؟ . . كان الشفق الأحمر يغمر الأفق، والشمس تميل
للمغرب .

العرس

١

بدأ الضباب ينقشع ، واتضحت الرؤية .
يومان مرّاً ، على خروجي من غرفة العمليات . لمحت حسام
أمامي ، بقميصه الأزرق المفتوح على الصدر المشعر العريض .
وقف أمامي ، مكلاً بالصحة الوارفة ، والبطولة الرياضية الموسمة .
أياماً قبل إجراء العملية ، قلّد الوسام الرياضي . . ظل يرمقني من
أعاليه .

على الفراش ، قربي ، جلست سلمى ، تشديدي مؤازرة . تلتمع
على صدرها الممتلئ وردة مبرعمة تتدلى من سلسلة الذهب .
أسدلت جفني ، موهنة ، تركتهما ومضيت بعيداً . .
شارع مشمس ودمعة فيروز براقه خلف الزجاج . . .
على صدري الناهد ، تترقرق الدمعة في سلسلة الذهب . . هدية
أنوثتي الوحيدة!! . .

ولكنني ظيّعت الدمعة . . اشتريتها يومها بالأقساط . وها هي أنوثتي
اليوم ، تبيعني بالأقساط ! .

بتوا النهد أولا . . وأخيرا ، اقتلعوا الرحم . . رموه للكلاب والقطط
السمنية السائحة بين أروقة المستشفى .

هناك داخل البناء وفي ثنايا الحديقة ، البراميل الكبيرة تتوزع . . تبتلع
ما تجود به المشاطر من اللحم البشري . . تنط قطة سوداء على فوهة
البرميل . . تخطف لحمة مستديرة حمراء . . تلتهمها متلمضة . . يعدو
قط رمادي سمين . . يواجهها مخاصما . . يرفع مخالبه . . يمد أنيابه . .
يتعاركان . . يطردهما الممرض المار .

في الممشى الخارجي ، قرب باب غرفة العمليات ، يقفزان معا ،
على برميل جديد منتفخ ، بولائم اللحم البشري . يلتهمان رحمي
المقتلع .

*

*

*

— صباح الخير ! كيف حالك اليوم؟

يسألني حسام .

يصرخ الخواء داخلي كافرا . يكبلني بالعجز . يعيد حسام السؤال ،
وهو يحرق بشفتي المزمومتين . بدا نائيا ، بعيدا على حافة الضياع .

ضاع الكلام يا حسام وخرس اللسان !

تعود كلمات رسالتي إليه ، منذ أكثر من عام : «هديتي الوحيدة : امرأة تهبك ما حرمتك منه!»

ولكنه لم يقبل الهدية ورفع في وجهي رايات الرفض .



.. الآن، وأنا أجلس في وهني وذلي أمامه، امرأة مطعونة وأرضا
ينخرها الخراب، لن أهديك يا حسام! ولكني سأفرض أحكام
الضياع!

الآن، جسدي يعلن أحكامه. طاقة غامضة طاغية تسكنه، ليكتب
بنزفه قدر الأرض المثخنة، وليفرض أحكامه.

الآن ، وقد تلاشى التخدير وزال تأثير المهدئ ، يقظة ، مفتوحة العينين على خرابي ، في غرفة نومى ، علت من أدغال الروح صرختي . صوت لبؤة جريحة ، طعنت في غفلة ، يعلو في الفيافي .
لوهلة ، شاهدت اللبؤة تقف ، بكبرياء ، ترفع الرأس . ستقاوم وتكافح وحش الموت القادم . ستتقدم خطوات ، صامدة ، مصممة إلى غاباتها ، تشق بين الأحراش ، دربها إلى العرين ، تقود الرفيق بعيدا عن مهاوى الخيانة القاتلة . يعلو صوت اللبؤة الجريحة داميا :

طاقة!!!!!!

..طلقة نني!!!!!!

.. ط ل ق ن ن ي

ي

ح س ا م !!!

لا تهذي اللبوة يا حسام! .. لا تهذي! ..

إنها تلحق دمها، تحرق أحساك الخيانة، وتداوي بجمرها الجرح
الثخين، ليبقى أسد الفلاة، خارج شباك الجوع والظما، راعيا
لأرضها المستهدفة.

.. ط ل ق ن ن ي

ي

ح س ا م !!!

هزت الصرخة أركان البيت . ركضا إلي . سلمى ترشني وتسقيني
ماء الزهر ، وحسام يقدم لي كأس ماء وقرصا مهدئا ، يلحّ على
ابتلاعه ، ويترجى هدوئي . . ولكن ، لا أحد بقادر على إخماد
صوت لبوة جريحة . . لا أحد! .. لا أحد!

أخيرا، انغلق عليهما الباب .

من الجدار، تسربت همهمات، وآهات . . تيقظ الحرمان، يوقد نار الشهوات الضاجة في الجسدين العففين .

أرفع الغطاء على رأسي . أما آن لمخدري أن يقتلني ، لأسقط في بئر ظلمات النسيان؟

في الغرفة المحاذية، يهتز السرير . . يئز السرير . . رتيا . . رتيا . . يهتز دماري، يكفنتني وحيدة، على سرير فقدان . . أشد الغطاء على رأسي . . أرى حسام عاريا، متوتر الجسد . . تتصلب أعضاؤه . . تتوتر أصابعه . . تتحسس الخبايا . . تسرح في كل الربي . . تصعد مع الصدر الناهد . . تحنو على الحلمتين الموردين . . أشد الغطاء على صدري . . يحز الألم الثاقب ثديي المقطوع .

يئز السرير في الغرفة المجاورة . . يتسارع الأزيز . . أغمض، بقوة، عيني المرهقتين وأغرس رأسي في الوسادة، أخرس أصوات النشوة الصاعدة إلى الذرى، مقتاتة من دمي .

*

*

*

بصمت ، امتدت يده إلي ، شد يدي .

شاهدته ينحني علي من عليائه ، ببدلته السوداء الأنيقة ، بربطة
العنق الحارقة الحمراء . . توقدت نظرتة المفعمة حبا واشتياقا ، وهو
يدعوني : — هيا بنا !

تلاّأ البياض حوالي وأنا أنهض .

تقدمنا ، يده الساخنة تشد بقوة يدي ، والبياض يتلاّأ حوالي ،
عروسا أخطر في بهاء زينتي ، أجر ذيل فستاني المطرز الطويل .
تهفهم طرحة الفرع على استدارة كتفي العارين . تتعالى
الزغاريد . موسيقى الفرع تهز أركان القاعة ، وأنا أتهادى إلى
جانب حسام ، بين الشموع المضاءة ، ترفعها الصبايا الصغيرات ،
لنصعد إلى المنصة ونجلس على عرشنا في ليلة العمر .

فجأة ، وخزت رسغي حرارة مباغثة . . سرت حارقة ، في
رجلي . التفت ، وإذا هي شمعة ساقطة تلتهب . تمسك بحاشية
الفستان . في لمح البصر شبت النار في ذيلي ، صاعدة إلي . .

صرخت مستنجدة ، أضرب اللهب وأركض هاربة ، واللهب يمتد
سريعا حوالي . . يأكل باقات الورد على كرسي الزفاف . . يأكل
عشب البساط . . يأكل الأرض تحت قدمي .

اختفى حسام . . اختفى الحاضرون . . اختفت الموسيقى
الصاححة والزغاريد . . بقيت وحدي ، أضرب بيدي ألسنة النار
الصاعدة في أجنحة الفستان . . أمزقه . . أنزع بقاياها . . ألقى بالحريق
بعيدا . . يسطع بياض جسدي ، ليلة عرسه ، عاريا من ثوب
الزفاف . . عاريا ، يكشف الثدي المتور ، والجرح المخيط يقطعني
نصفين .

بغته ، بدت سلمى بعيدا ، في أقصى قاعة الفرح ، ترتدي
ثوب زفاف جديد يتلأأ بياضه . . أكتشف أنه فستاني ، لم تمسه
نار . . صرخت عاليا ، مستنجدة . . لم تلتفت سلمى إلي . . كأن لم
تسمع . . أولتني ظهرها ، ومضت خارجة من القاعة ، حسام إلى
جانبا . . واختفىا معا في هالة من الضباب ، وتركاني وحيدة
تلتهمني النار . . من هول الرعب ، شق صدري عواء حيوان
جريح .

انتفضت لاهثة ، مشظاة الرأس ، ومطرقة الصداع تعلقو
وتنزل ثقيلة على دماغي .
كان السكون ساجيا ، والظلمة مُخيّمة . اختفت النار وفستان
الزفاف وغابت سلمى ، وحسام .

ومع لهيئتي المنهدّ، استراح، في الغرفة المجاورة، أزيز
السريّر . . استراح أخيراً في حضن لذات الجسد.

أنا التي سطرت هذا القدر .

من يومين ماضيين ، أتى ، أخيراً ، الإمام عدل الإِشهاد ، كاظمًا
استيائه ، وهو يد لي عقد الطلاق ، ويوقع عقد الزواج ، بين حسام
وسلمى ، يومين قبل رمضان . حضر شاهدان من أصدقاء حسام
القدامى ، وعدا بالكتمان .

في البداية ، رفض حسام «هذا الجنون» . عاند بقوة وراوغ
بمكر . أغراني برحلة معا إلى غابات عين دراهم في العطلة القادمة ،
تريح أعصابي وتنقذني من انهيارى ، كما زعم .
لم يستسلم عناده إلا بعد أن بدأتني أوجاع تظهر وتختفي ، في ساقى
اليمنى . تورمت رجلى واحمرت . انتشر التورم والاحمرار .
والأوجاع ، أصبحت تجبرني على الجلوس وإراحة رجلى على
كرسي أمامي للتخفيف من ضغط الوقوف .

الفحوص والصور لا تدلي بشيء . والوجع يمتد على كامل
الرجل . وسناء تأتيني ، من حين لآخر ، محتارة ، سائلة ، يوشح
الأسى وجهها المدور الصغير :

— ماما! متى تشفين ونسافر كلنا إلى الغابة؟ . . أنا كل يوم أدعو
ربي أن يشفيك! . . يارب!

يدخل حسام، قلقاً، التجهم يعلو محيّا حين يراني .
يعود الخوف . . خوف الخيانة التي يقوده إليها جسدي الملازم
لفراش العلة .

يحتدّ الوجع . . تُسْقَطُ الحكمة سلاحها، عاجزة أمام الداء . يتلاشى
حلم السفر . . واللبؤة الجريحة داخلي تستيقظ . . يعلو
صوتها . . تتفجّر صرختها من جديد، ناشدة الخلاص :
— ما عدت قادرة! . . اسمع ندائي وخلّصني يا حسام!

أرجو ————— وك!

خ ————— ص ————— ن ————— ي

ا —————

ح ————— م!!!

الجريمة

نامت أطيّار الربيع ، وهداً هبوب الريح ، وجلس ثلاثنا :
أنا ، وطلّقي حسام ، وشقيقتي سلمى ، رفيقة سريرى ، حول شاشة
الغياب .

استسلم وهنى للوسادة العريضة خلف ظهري وعيناي تتابعان
صور الأخبار الأخيرة ، فى الأرض السلبية التي تنتفض . طفل
يصيب بحجارة خوزة أحد جنود الاحتلال ويختفي فى دخان
العجلات المحترقة . . فتى جريح يحمله رفاقه راكضين تحت وابل
الرصاص . . جنود يقبضون على طفل يافع ، يلوون ذراعيه إلى
الخلف بوحشية ، ويكسرونها بالحجر . . دماء ترش الجدران
المخرّبة والرصيف المحفّر ومحاة سريعة ، تتقدم وتغطّي انتفاضة
الأرض وتمسح شاشة العالم المغتصب .

ترتفع نغمات إعلان راقصة . . ليلة رمضان ! يملأ الوجه الأنثوي
الباسم الشاشة ، فى تمام زينتته ، يلفه الحجاب . . يتمايل جسد المرأة

المحجبة مع إيقاع الأغنية . . «يا لذة الزيت العربي ! يا روعة الزيت العربي !»

ينسكب الزيت العربي صافيا شفافا من قارورة الزجاج في يدها .
«الزيت العربي يقلبي ولا يحرق !» تواصل المرأة المثنية في غنج . . «يا لذة الزيت العربي ! . . يا روعة الزيت العربي !»
تقدم اليدان الجميلتان طبق البطاطس المقلية الصفراء ، مزينا بشرائح اللحوم المحمّرة ، على رفات الصور الماضية .

التقط حسام المَوْجَه باحثا عن أخبار الصيام في قنوات عربية أخرى اهدت الليلة إلى هلال رمضان . واتكأت سلمى على مسند الأريكة في دعة ، حذو حسام ، ترمقني من حين لآخر ، في صمت ، ثم تعود لترحل مع عريسها إلى الفضائيات العربية المنشغلة بمسلسلات شهر الصيام ومآدبه الباذخة .

بقيت متهالكة على مساندي ، ملتمة على وحدتي ، بعيدا عن الجسدين العفين أمامي ، هاربة إلى الشاشة المضيئة ، تراقص فيها الصور وتداخل الألوان . . أطباق الغلال الشهية . . المآكل الشرقية المتنوعة . . الفوانيس الملونة . . المآذن المنارة . . الخيول

المطهّمة . . السيوف البراقة البتّارة ، في أيدي الراقصين . . تهجم من
جديد أطباق الغلال والمأكّل والحلويات
والمكسّرات . . والمشروبات . . تغزو النفوس . . تثير الشهية ، في
انتظار أن يعلن مفتي الديار عن شهر الصيام . . تثقب الصور
عيني . . مسامير ضوء حادة تنغرز في بؤبؤي وانقباض غامر يكتسح
الروح الوحيدة .

استندت إلى حافة الطاولة الواطئة ، ونهضت . تركتهما
منشغلين بالتلفاز ، مع شهوات شتّى ترتع وتسيل في غرفة
الجلوس . سحبت رجلي المتورمة معي إلى غرفة النوم . وانحشرت
في فراشي . التففت على خوائي ودعوت إلهي ليمسح على جبيني
بيده الرحيمة ، ويريح ذاكرة الأرض الماضية إلى خرابها الأخير .
ولكن ، في عتمة الغرفة ، عادت الأرض تطرق بابي .
وتعالى صوت امرأة الإعلان الشادية من جديد ، تتغنّى «بالزيت
العربي» :

.. يا روعة الزيت العربي ! .. يا لذة الزيت العربي ! .. لمقلاة
البريك والبطاطس ! .. للذائد الأسماك ! .. وشرائح اللحوم ! ..

انتشرت روائح الطبخ والقلي . . ارتفع الدخان . . لفتني روائح
المطبخ العربي الثقيلة . . حرائق قدوره وطناجره . . وهجم الغثيان ،
غثيان تلك الأيام ، أيام العلاج الكيميائي الرهيبة . . أمسك
حشاي . . عادت أظافره تمزق جوفي . . تمتد ذبذباته كهربائية إلى
الدماغ . . تنتشر في كل الأعضاء والحواس . . تتقلص
المعدة . . تنتفض بالوجع المتوتر الصاعد إلى الحلق . . أنتفض
قاعدة ، كفاي على فمي المفتوح ، ليتقيأ العالم العفن الذي
يسكنني . . ولكن القيء يعود إلى حشاي . . يظل في . . يلقي رأسي
الثقيل المصدع إلى الوسادة ، في انتظار أن يُغرق المخدر صحوي
الفاجع وغثياني الرهيب .

* * *

لم أصدق أنني نمت إلا حين سمعت صوت سلمى ،
جليًا ، في هدوء البيت الصباحي ، يعلو على غير عاداته .
— هل بلغك النبأ؟ . . لقد وصلوا إلى تونس . . إلى سيدي
بوسعيد! . . اغتالوا القائد الفلسطيني «أبو جهاد» . . الليلة
الماضية . . لا تنس صحف الصباح!

استنفرت الحواس والكلمات تطرق مسمعي :
— في المذيع . . أجل . . قُتلوا . . الليلة الماضية!

. . عادت الليلة الماضية ، ليلة الشك . . التلفاز يغني ،
والمفتي والعرب منشغلون بالهلال ، و «الزيت العربي» . . والجرذان
تهجم . . الجرذان !!!

. . أطلت فجأة الجرذان ، وتلك اللوحة الغريبة المدهشة .
ذاك الرسم الذي تمنيت شراءه ، رغم اصطدامي به في البداية ، وأنا
أدلف إلى رواق الفنون . . أكان رسامه يعلن فيه نبوءته ؟ !
لوحة «سيدي بوسعيد» كان العنوان في مطوية المعرض . سيدي
بوسعيد ! الضاحية الراقية البيضاء ، المزدانة خضرة عند أعتاب
البحر ، رمز سياحتنا الشهير ، بفيلاتها الأنيقة البيضاء ، بزخارف
الحديد الإسبانية الجميلة على شبائيكها الزرقاء . . سيدي بوسعيد
على الرابية المشرقة على الدوام . .

ولكن الرسام نفّض فرشاته من الألوان . لم يُبقَ غير تدرجات
السواد والبياض ، تشكل مقهى سيدي بوسعيد العالي . احتل جل
مساحة القماشة الدرج الصاعد إلى المقهى ، بين ظلال شجر
غائمة . . في ركن خفي من المدرج ، قبع فأر رمادي يحرق في بعينه
المدورتين في صمت . . تدرّج نظري المصدوم إلى أعلى اللوحة ،
وإذا لطخات سواد تشوّه الدرج العريض ، قريبا من الباب المقوس
المفتوح للسائحين . . كانت الجرذان ترتع ، هنا وهناك ، على بياض

الرّخام . . تذكرت ، فجأة ، رواية ألبير كامو «الطاعون» . عادت جردانها الحاملة الوباء القاتل في الشوارع والدور . . ها هي تنط على درجات مقهى سيدي بوسعيد! . .

مستفزة ، اتجهت نحو الفنان الشاب سائلة : — ما الذي تقصد من هذا التشويه لأجمل الأماكن وأرقى الضواحي والمدن؟
رفع كتفيه مستخفا ضاحكا وعيناه تتلامعان بهريق ماكر ، وهو يقول : — إنني ألعب !

— ولكن . . يا له من لعب مخيف ! لعب ينبئ بحراب قادم رهيب !

ها هي تلك اللوحة النبوءة تعود . . تقرض جردانها الإطار . . تنزل من القماشة . . إلى الأرض . . تنتشر قارضة ، ناشرة الداء . . والتلفاز ، يتغنى بالزيت العربي ، والجلال ينتظرون المفتي ، وهلال رمضان . . وفي الظلمة ، تهجم الجردان وفق جداول المسلمين . . وداخلي ، تتناسل الجردان!!

دفعت — مرتعبة — الغطاء ، وتركت السرير . ولكن الدنيا غامت في عيني ، ودارت بي . . أمسكت مقبض الباب . . خرّت بي رجلي المريضة المتورمة . . وجدنتني أقع على ركبتي ، ووجع لاذع يثقب عظام ساقي التي انشت .

على السجاد ، بدت ديدان تتحرك باتجاهي . . عيون مدورة صغيرة
تتكاثر حوالي ، تزحف إلى رجلي المصابة . تكبر الديدات البيضاء
وترمّد . . تتحوّل جردانا تحيط بي . . تأكل من ربلي المتنفخة
الحمراء . .

صرخت منادية سلمى . . صوتي يختنق ولا يطلع . . والجرذان يأكل
بعضها لحمي وبعضها يتلهى بجسد ينخره الرصاص ، قربي ، وقد
سقط في دمه المهذور ، على الأرض .

فجأة ، انفتح الباب و دخلت سلمى . أمسكت بيدي ،
تسندني ، وقد فاجأها سقوطي .

. . اختفت سريعاً الجرذان . . رغماً عني ، طلع السؤال ، لا مبالياً
بتحية الصباح وبأسئلة سلمى عما دفعني للقيام .

— أحقاً ما سمعت ؟

!!

شاهدت سلمى تقضم شفتها السفلى ، نادمة على صوتها الذي
ارتفع . رفعت الوسادة تسند ظهري وتساعدني على الجلوس .

— لا تشغلي بالك بالدنيا ! اتركها لمصائبها ! . . يكفيك ما أنت
فيه !

ولكن..! الدنيا فيّ يا سلمى!.. الدنيا، بعواصفها
وأنوائها.. بجرذاتها وخرابها تسكن في!

.. هل سمعتني سلمى؟ .. في قسماتها المشفقة ، في لمعة عينيها
النديتين ، شاهدتني ، لوحة ثانية لأرض تضيع فيها
المعالم .. استأصلوا منها ثدي الأمومة .. سرقوا حليب
الرضيع .. نهشوا الرحم .. وها هم يزحفون إلى العظم ، والقلب !







وأنا أجز خطايا إلى الحمام، لمحت الهاتف في الردة .
خطر لى أن أرفع السماعة وأعزى غسان سلمان . .

ولكن، من يعزّي من؟.. وأنا الأرض التي شوّهت جغرافيتها
ونخرها الداء، وتسلل ينشب مخالبه، مهّدا
الذاكرة.. ولكن.. لا!!.. لن أتركه يخرب
الوعاء والذاكرة!

سأقــــــــــــوم! .. سأنهـــــــــض وأقــــــــــــوم!
الذي سقط من يدي .. أحفر بالسواد على البياض ذاكرة
زائفة .. حياة تعلو على الخراب ، تخضر وتزهو في قلب الريح
والعاصفة!

فتحت الحنفية على أقصاها . تفجّر الماء بين يدي ، تنعش برودته الحياة الناهضة في جسدي ، قبل أن أفتح المذيع ، وأتابع آخر الأخبار . توقفت الإبرة على موجات إذاعة الشرق الأوسط ، أمام شحّ الأنباء في الإذاعة التونسية . كان صوت المذيع الجهوي يعلن الخبر :

«علمنا من مصادر موثوقة ، أنه ، في الليلة الماضية ، السبت ، ١٦ أفريل ١٩٨٨ ، الموافق لـ ١ رمضان ١٤٠٨هـ ، تسلل كومندوس إلى العاصمة التونسية ، حيث اغتالوا أحد أبرز رجال منظمة التحرير الفلسطيني ، خليل الوزير «أبو جهاد» ، في ضاحية سيدي بوسعيد .

سبعون رصاصة أطلقها الكومندوس صوب جسد خليل ، مزّقت نياط القلب وثقبت الجمجمة وشطّطت الدماغ . وقد صرحت زوجة الشهيد أن امرأة كانت تصحب الكومندوس ، صورت بالكاميرا كل مراحل الاغتيال .

اختفى الكومندوس مع قائده الأشقر ، تاركا الحارسين الشخصيين لـ «أبو جهاد» : أبو سليمان كريشان ومصطفى عبد الله قتيلين ، وعلى الرصيف ، أمام باب الحديقة الخارجي ، الحارس التونسي

الحبيب الجويني غارقاً في دمه ، كما غرقت صاحبة سيدي بوسعيد
في الظلّة وقُطعت وسائل الاتصال» .

عقدت الصدمة لساني ، والفجر يعلن عبر هاتفي الخبر .
 طرت بالسيارة من قرطاج إلى سيدي بوسعيد وغضب كالح
 يعصف بالروح . على طول الطريق ، كان الفجر حريقا يلهب
 الأفق ويحرق الشجر الراكض هاربا إلى تربة آمنة عدمتها الأرض .
 وأنا أترجل من السيارة ، مقابل بيت خليل ، تعلق
 عيناى بشرفة بيته العالية ، بمصاريعها الخشبية الخضراء المغلقة على
 نافورة الدم . تقدمت أمام البيت المطوّق برجال الشرطة والمباحث .
 وجدت جهاد وعزمي وبعض قادة المنظمة . كعادتنا ، تجمعنا
 النوائب والدم المهدور ، وتوقفنا الفجائع على عتبات الصمت .
 فأى كلمات تعادل هول الفقد ، يتعقبنا فى أصقاع الأرض ، لا
 ترضيه الملاجئ ولا المنافى ؟ !

. . كم ظللت هناك ، واقفا أمام بيت الشهيد؟ عيناى مصلوبتان
 على البناء الأبيض الحزين ، ينظر إلينا بنوافذه المطلية بخضرة
 الأرض ، وأشجار النخيل خلف الدار ، تُلَوِّح لنا بسعفها العالي
 البعيد ، تؤازرنا فى صمت . لقد كان النخيل شاهدا . مراهه

الخضراء التقطت كل فصول الجريمة التي اقتحمت الدار في ظلمة الليل .

وجدتني ، عائدا في السيارة من جديد ، مثقلا بأوزاري .
فيلات سيدي بوسعيد تتوالى مبتعدة يكسوها الرماد ، وبحر قرطاج
يطلّ ، ضاجا ، مربدا ، بلا بريق .

* * *

في مركز الأبحاث الفلسطيني ، علا صوت محمود ملتعا في وجهي :

— لقد جاء التحذير منذ أيام!! هناك مخطط اغتالات معدّ لقادة
حركة التحرير الفلسطينية!
. . نعم . . غير أبو جهاد اتجاهه ، ولم يعد ليلتها إلى الجزائر ، كما
كان مقررا . ولكن ، كان يمكن تشديد الحراسة! كان يمكن التمويه
وتغيير السكن! . . .

أقبل جهاد ، معلنا بنبرة حازمة :

— لقد حل أبو عمار بتونس ، قادما من المنامة . قطع رحلته وعاد
فورا . . صلاح خلف «أبو إياد» ، عاد صدفة إلى تونس الليلة

الماضية . أبو اللطف وأبو مازن هنا . . كان أبو مازن في بيته القريب
جدا من بيت خليل ، ليلة الجريمة . ولكن ، كان هدفهم أبو جهاد !
تجهم وجهه لحظات صمت قبل أن يضيف :

— سنمضي اليوم إلى موكب العزاء ، بعيدا عن موطن الجريمة ، في
بيت الشهيد بسكرة . والآن هيا بنا !

همهم صوتي المتخن : — سأكمل عملي الإعلامي وألحق بكما .
مضيت إلى الأوراق والصحف المتناثرة على المكتب . مزق
الشهادات والأخبار تتوالى وعقلي يربط تفاصيل الجريمة . وشرعت
أكتب :

الواحدة والنصف بعد منتصف الليل ، طرق باب منزل
خليل الوزير . فوجئ الحارس بصوت أنثوي مريب ينادي باسمه :
— افتح مصطفى !

أشهر المسدس واقترب ، محاذرا ، من الباب . وضع عينه على الكوة
يستطلع القادم ، وإذا طلقة رصاص تخترق الكوة من كاتم
الصوت . انغرزت الرصاصة بين عيني مصطفى المحدثتين . أطلق
رصاصة واحدة قبل أن يتهالك على الأرض . بسرعة ضربوا الباب
كاسرين أقفاله واقتحموا الدار . أجهزوا على الحارس الجريح
برصاصة في القلب وطاروا إلى الطابق العلوي .

اندفع أبو جهاد من المكتب المضاء شاهرا مسدسه وقد
أنذرتة صرخة مصطفى وطلقة الرصاص بقدمهم . ترك الملفات
مفتوحة تحت الأبقورة في المكتب الخالي . . مجرد ثوان تلاها الصمت
المريب .

هبت زوجته مذعورة من غرفة النوم . . فجأة ، انهال وابل
الرصاص من كواتم الصوت القادمة من الدرج ، أحاطت به
الرشاشات . . الرشاش الإسرائيلي عوزي . . الرشاش الأمريكي
M16 . والحق الأ سود يفرغ كل مخزونه في جسد أبو
جهاد . . رصاص يكفي لقبيلة من البشر .

أمام أم جهاد تمت الجريمة . . شقت صرختها الفضاء ، وهي ترتمي
على الجسد المخرب بالرصاص ، في جداول دمه .
— هيا ! اقتلوني معه ! . . اقتلوني معه ! . .

دفعوها بعيدا ، مع الطفلة المفجوعة المستيقظة والخادمة المرتعبة .
حدجها أحد رجال الكومندوس بنظرة شامته زرقاء قائلا : —
لسنا بحاجة إليك !

وفروا تراكين سيدي بوسعيد غارقة في الظلمة .

*

*

*

واجهتني الصورة المكبرة التي أعدت منذ الصباح ، في الإطار
البرونزي . نظر إليّ . الحماسة تضيء قسما وجهه الخمسيني
الواثق ، وشارباه الأسودان شامخان في وجهه المهيّب ، والعينان
السوداوان الكبيرتان شعلتا تحدّ بتار .

ولكن ، لم تعل ضحكته المجلجلة المحببة إلى النفوس . لم تشعل
كلماته روحي المشظاة لتعود تلتّم من جديد ، وتطير فوق الخراب
والاغتياالات والمجازر .

حدق في وجهي ، في صمت . ولكن زخات الرصاص ، أغرقت
الوجه الصامد في الدم . . وحيدا أمامه ، علت صرخة الروح :

اللعنة.....!

اللعنة.....!

أننت؟ أننت بالذات

يـا خـليـل؟!

صحيفة الصباح — تونس : لم يغفروا له

بعد الاعتداء الإسرائيلي على غزة سنة ١٩٥٥ ، كان الرد الذي قام به أبو جهاد على هذه العملية بضرب حافلة ، إسرائيلية . كما أن رحلة أبو جهاد للجزائر أيام الرئيس بن بلة قد ساهمت في تذكية الكفاح الفلسطيني المسلح ، إذ أرسلت الجزائر طائرة مليئة بالسلح إلى سورية التي كانت المنطلق للعمليات الفدائية .

صحيفة المستقبل : الثأر

. . لم تنس إسرائيل تهديدها بالثأر بعد حادثة باص ديمومه ، إضافة إلى أنها تعتبر «أبو جهاد» المسؤول الأول المباشر في القيادة الفلسطينية عن الانتفاضة الشعبية بالداخل بداية من ١٩٨٧ .

صحيفة الأرض :

مواجهات في جباليا

ذكرت وكالة الأنباء الفلسطينية — وفا — أن ٢٠٠ طائرة تابعة للاحتلال — حلقت في سماء قطاع غزة وقصفت المواطنين بقنابل الغاز السامة في جباليا التي تمكن سكانها من تحرير مركز الشرطة الإسرائيلية فيها . كما أن عشرات من جنود الاحتلال أصيبوا — إثر تعرضهم للحجارة ولقنابل مولوتوف — بجروح في قطاع غزة الذي فرض فيه حظر للتجول . وأعلنت مستشفياته حالة طوارئ قصوى .

فاكس :

وكالة الأنباء الفلسطينية :

الكومندوس

٧ رجال وامرأة

علمنا من مصادر موثوقة أنه تم العثور في «كاب قرطاج» الذي يبعد ١٨ كلم عن العاصمة التونسية، وقريبا من سيدي بوسعيد، عن سيارتين مهجورتين بين الأشجار الغابية، وبقايا

قوارير مشروبات مع مائدة بلاستيكية حاملة ، يفترض أن يكون الكومندوس استعملها قبل الوصول إلى مركز الجريمة .
الأبحاث مازالت جارية : كيف جاؤوا؟ هل مازالوا في تونس؟ أم هربوا بعد جرميتهم؟

*

*

*

كيف جاؤوا؟ . . مرة أخرى!
ثلاث سنوات فقط بعد غارة حمام الشط ، كيف امتدت أيادي الأخطبوط السرطاني ، ٢٤٠٠ كم ، في صمت رهيب ، لتخرب الأرض ، . . وتعود سالمة؟
ابتلعت أحجار السؤال ، ويداي المتوترتان تلملمان قصاصات الصحف ورسائل الفاكس . حملت الملف أودعه أدراج الذاكرة النازفة في مكتب نهى المسؤولة معي عن الإعلام .
قبل أن أخرج ، ألقيت نظرت أخيرة على الصورة الكبيرة التي رفعت هذا الصباح على الجدار .

ها هو سجاد عليسة ، يؤوينا في استراحة المسافر الطريد!

ولكن مخالب السرطان تشق السجاد مقتحمة البحار والقارات
والسماوات . تقطّع سداه ، محمّلة بأحدث عتاد وأدقه وأمكره ،
لقتلك .

فكيف نقاوم يا قائد جيل الثوار؟؟!

*

*

*

«كيف نقاوم هذا السرطان الرجيم وقد افتكوا منا السلاح؟» .
علا صوتي الغاضب في وجهك ، والبواخر تزعق في البحر داعية
للرحيل من بيروت المخربة على رؤوسنا ، إلى الملاجئ الجديدة .
نظرت إليّ ملياً ، بوجهك المكفهر المتعب ، وتوهجت عيناك
وحطت كفك الكبيرة على كتفي ، مهدئاً غضبي وقهري ، محاولاً
رفع معنوياتي مع الرفاق المنتظرين الرحيل .

قلتَ ويدك لا ترتفع عن كتف بدلة الحرب الماضية إلى المنفى :

— بكل سلاح ، في أي أرض ، يمكن أن تقاوم!

وأردف صوتك الواثق الجلي :

— تذكر الصوت المجلجل الذي هز المجمع الأممي لـ «أبو عمار»

سنة ١٩٧٤ ، يوم ارتفع صدهاء في كل الأرجاء وهو يعلو مدويا :

«جئكم ، بغصن الزيتون في يدي ، مع بندقية ثائر . فلا

تسقط ————— وا الغص ————— ن الأخض ————— ر

م ————— ن ي ————— دي !

لا تسقط ————— وا الغص ————— ن

الأخض ————— ر م ————— ن

ي ————— دي !

لا تسقط ————— وا الغص ————— ن

الأخض ————— ر م ————— ن

ي ————— دي !»

ارتجت الأرض بالتصفيق، وتجاوز الصدى الحدود
وأصبحت الكوفية الفلسطينية رمزا ووشاحا للشباب الشائر في
الأصقاع. والآن، إذ تنكّس البندقية، حين، ويرحل المقاتلون
بعيدا عن تخوم أراضينا، سنواصل النضال، وسنرفع دوما غصن
الزيتون.

أنت!.. أنت أيها الشاعر غصن
الزيتون!.. الكلم ————— ة التي ستظل، أصلها ثابت
وفرعها في السماء!

فاحمل سلاحك يا غسان، في كل ملجأ — مهما نأى —
الكلمة لك سـلاح! .

ولكن! يا صاحب الضحكة المججلة على الدمار! هل
تعيد الكلمة ضحكك المتحدية، وجسدك الصامد الواقف في وجه
العواصف والأنواء؟!

هل تعيد الحياة للأجساد الممزقة والأعضاء المقطوعة والأشجار المجتثة المحروقة ، لترفع رأسها من جديد بالخضرة والظلال والثمار؟

الكلمة _____ !! هل تعيد الجسد المخرب عفيا
 نابضا بالحياة والعنف _____ وان؟
 «الكلمة _____ سلاح!!»

نفس العبارة، سمعتها، هنا، في العاصمة التونسية، ودجلة على
منصة الشهادة، تعترف، في إحدى الندوات :
«الكلمة

سلاحـــــــــــــــي!!
..دحلة! .. آ آ آ آ آ آ آ أه دحلة

كيف تقتحم المجازر وتعود إلي؟ . . يترقرق صوتها . يهب
نسيمها . يهب عطر الأراضي البعيدة . . يلتمع خاتم أمي في
يدها . . تأتي . . تعزيني .
. . ترى؟ ترفع السماعه حقاً؟ وتعزيك في هذا الفقد الم هول يا
غسان؟! .

شتات أوراق

ورقة ١ :

الخريف..والربيع..الربيع
..الربيع!

يئز المصراع الخشبي وينفتح ، وتعود تدفعه الريح إلى النافذة . تزداد الظلال ، ويشح أكثر ضوء النهار . يعود المصراع يئز من جديد ، يبطئ وقلق ، يفتح على حاجز السرو الراعش في الريح . أزيز سيارة عابرة . . صدى مذياع بعيد . . ينوح بنغم أندلسي ، عتيق .

حی

ن

تصنيف

العشرون

نتـــو حـــــــش

الذَّيَّار

يارب

توب

أخذ القلم يتزحلق على بياض الورق . . يهيم . . يبحث عن
مستقر ، شاردا ، تائها ، يلونّ البياض . . يبعد الكفن . . كاف
وحيدة ، حرف وحيد ينضاف إلى : فن ، لتعلن النهاية .

. . أندھش . . أيمن أن يكون الف ————— ن قريبا إلى
هذه الدرجة من الموت ؟ . . من الك ف — ن ؟ ! . .
أم ه ————— و ت ق ————— ا ر ب
الأض ————— د ا د ، إذ يواج — ه
الف ————— ن الفن ————— اء ، ويعلو على
الهاوية ؟

ورقة ٢ :

أصابني لا تكاد تقدر على رفع يدي بالقلم ، والجسد
أمسى خرقعة مائعة على السرير . . الحروف
تتمدد . . تنحدر . . ترتعش . . تتوالى الفراغات . . يتسع
البياض . . والكلمات تذوب خجلا من يد تستل منها
الحياة . . تفرغها الدنيا من إكسير الخلق .
منهكة ، أترك القلم . أحاول أن أقرأ . أوراق الفصول
الماضية . . تستوقفني جملة نيتشه الفيلسوف :

«كائن أكثر نفوساً—وذا، حكي—
مجهم—ول، له اسم الذات، يقيم في
جسدك.. إنَّه جسـدك!»

.. ولكن!.. لو تـدر يا صاحـب
الحكمة!

للجسد الآن مطلق النفوذ، ولكنه فقد الحكمة، واستبدل بها
الجنون.. وها هو يستسلم لفوضى أوراق تناثرت حواليه، معلنا
عجز اللغة.. بؤسها.. لا معناها، أمام الألسن
الساحق—ق والوه—ن
العظيم!

يسق—ط القلم.. يتلاش—ى ضوء
الغروب الباهت في بحر السواد العميم القادم.

تمتد يدي الواهنة تضغط على زر المصباح على طاولة
السرير. أوراق الصفحات الماضية. تتابع عيناى السطور: «يا
فارس النسيان!

اتركني أمرغ وجهي في غابة صدرك! أهيم في الأدغال، وأدوب في
رحم اللذة المسكرة!

اترك يدك النارية تشعل الضوء في دمي ، فأنتفض راعشة
مضيئة! . . لك جيدي المرمرى النابض شوقا يستكين . . لشفتيك
الحارقتين، تحيلني طائرا خياليا سعيدا، يستكين لسكين الذبح! « .

أكان هذا صوت الجسد العفي في الرواية التي أكتب؟
ولكن، أكانت الحقيقة أم الخيال، يقودني لكتابة هذا الشوق
الجامح لجسد استفاق بعد الأوان؟

* * *

ينوس ضوء المصباح، ينعكس على الصورة المقابلة
للدولاب . الأهرامات الخالدة جائمة بجلال في سكون الليل
الصحراوي، تنير قواعدها أضواء سرية خجولة، خضراء وحمراء
وأرجوانية . تنير ليل الخلود .

مستلقية على السرير، أسافر إلى ليل الأهرامات . هناك، في
السرايب، داخل الأهرامات، كانوا ينمون الجسد المفارق الحياة،
يحيطونه بكل حاجياته، حتى من الخدم، ٣٦٥ خادما، ليخدمه
واحد كل يوم من السنة، ويضيء ليله الطويل .

وأنا . . هنا . . وحيدة، مع الموت القادم، من سيضيء دجاي؟! . .

الموت! الوحيد الذي لا يعرف التسامح أو الغفران. على مهل أو بغتة يأتي، يضع النقطة الأخيرة. ولكنني أشعر دوما، شعورا غامضا، عميقا، غائرا، لانقطة أخيرة لي.. قد يتهاوى الجسد.. يتلاشى.. ولكنني أرحب وأوسع من الحدود.. ألهذا أكتب؟!.. ألهذا أروض اللغة، لتكسر الحدود وتحلق بي بعيدا؟!.. ألهذا أكتب؟! لأجعل من حروفي، خدمي، وشموعي التي تضيء دجاي القادم، في أهرام الموت؟

أم لأن المرض المزمن ، لا تشفيه غير الكتابة؟ الكتابة التي كانت تخفف عن دستوفسكي نوبات صرعه ، وعن تشيخوف آلام تدرّنه ، وعن اينشتاين ، نوبات جنونه ، وتخفف عني أنا عذابات المرض ومخاوف النهاية؟

✱ ✱ ✱

ها هو الخريف يكاد يسلم روحه للشتاء . الريح تلين حيناً
وتعود أحياناً تعصف بالمصاريع . . وصوت يعود إلى الذاكرة منشداً :

ففي معه _____ الريح ح
اتنا ..

فلنكمـل فـي

العواصـف!

يعلو صوت غسان، من جديد!

آه! يـ

مطـاردـي

الشـة يـ!

أيـهـا الشاعـر

المسافـر مـر يـع رـيحـاح

الكـون!

كيف تأتي الآن، في وحدتي، تطل على خيبة الروح وخذلان

الجسد، على سرير تناثرت فوقه أوراق رواية لم تكتمل؟!

أذكر قولك يوما، ونحن نجلس في مساء مقهى أريحا،

مقهى الشعراء والعشاق، حول كأس شاي يتعالى منهما البخار

برائحة الكركدن :

— ماذا لو كتبنا رواية معا؟ . ألا ترين أن أسلوبنا متشابهان؟

ابتسمت يومها لدعوة بدت لي مستحيلة، ورفعت رأسي بثقة

وخيلاء .

الآن، والأوراق مفتوحة، مترقبة بين يدي، ترمقني في بياضها
الحزين، وغمامة الغياب تطوح بي، تعود كلماتك، تدعوني من
جديد، إلى قدر يجمعنا على حافة فقدان. . وخطر لي : غدا، إن
كان لي غد، سأكتب رسالة إلى غسان .

ورقة ٣ :

زقزق الصوت العذب، وهلّ النور مع سناء، من الباب
المنفتح . الميدة الوردية المطرزة الجيوب، وفراشتان ورديتان تشدان
خصلات الشعر الحرير الكستنائي .
انحنى عليّ وجهها الطفولي المشرق . لا مست بشرة الورد خدي
مقبلة .

— أماه! . . هل استيقظت؟ . . أنت بخير؟ . . إذن، تصحبيني غدا
إلى المدرسة! . . أريد أن تري معلمتي!

خلفها، بدا علي . تقدم خطوتين . وقف أمامي ونظرة
مربدة حائرة في عينيه . بادرني بصوت حازم سريع :
— أريد أن أعرف . .

توقف لحظة قبل أن يضيف :

— لماذا لم يعد أبي ينام إلى جانبك ، كعادته ؟ . . أمسى دوما يرقد في غرفة الجلوس ، وأنت هنا بمفردك !
قفزت سناء إلى السرير .

[illegible]

بــــــــــــــي! .. ندّت صرختي ، وسهم الوجع ينغرس في
نقيّ العظم ، يشعل النار من القدم إلى أعلى الفخذ .
التصقت بي سناء ، معتذرة .

— ساعيني! . . ولكني أريد أن أؤنسك! . . لن أتركك وحيدة!
سأنام كل ليلة معك! . . لن أعود إلى غرفتنا مع علي وخالتي
سلمى، إلا عندما تشفين!

ظل علي واقفا مترقبا في حيرته . امتدّت ذراعي إليه داعية . أخيرا
أسلم يده بين كفيّ .

— حبیبی الصغیر!

قلت مشفقة ، مواسية ، وأنا أحاول ابتسامه :

.. ألا ترى أنني لم أعد أتحمل أي ملامسة لرجلي المريضة؟

والدك أصبح يخشى أن يتسبب في عطبي .. هو يبتغي راحتي!

أطل وجهه سلمى من الباب الموارب .

— لا تتعبا أمكما! .. هيا، لتناول اللوحة!

التصقت سناء أكثر بي . عانقت بشرة الورد خدي . ضممتها إلي

مشفقة ، حانية ، وانساب صوتي الواهن راجيا :

— اتركيهما يا سلمى ! . . سيأتيا نك بعد حين !

تشبثت سناء بي ، قائلة :

— أريدك أنت ، تعدين لمجتي ، تتنزهين معي ، تصحبيني إلى

المدرسة . . فمتى يا رب ؟ . . متى تشفين يا أماء ؟

تهدج صوتي ، على حافة البكاء :

— سلمى أيضا أمكما ! . .

استدار علي فجأة . أولانا ظهره ومضى ناترا .

أعاد صوتي الواهن :

— . . سلمى أيضا أمكما ! . . ستأخذكما للنزهة ! . . ستصحبك

إلى المدرسة ! . . هي تحبكما . . قد تنجب لكما طفلا جديدا

يؤنسكما ! . . ما رأيك عزيزتي في وليد جديد ؟ . . إن أتى ،

سمياه . . فرات !

. . هل كنت أهذي ؟ . . هل كانت تسمع صدى كلمات

خافتة تتسلل من شفتي المطبقتين ؟ . . شبه إغماء يراودني . . يقف

بيننا . . تغيب سناء . . يأخذني الدوار . . وحيدة في غمامة بيضاء

تطوح بي . . على نوح الريح ، ونشيج المطر .

ورقة ٤ :

بهدوء، يفتح الباب.. يدخل حسام، حذر الخطى، يتفقدني.
أرى شفثيه الممتلئين، في عمق الليل، أمام ضوء المصباح الخافت،
نديتين، راويتين.

.. کنت أسمع أزيز السرير ، وأشد على أزيز الوجة في
ص_____دري .. في جس_____دي .

تقابل حسام امرأة الروح صاحبة في عيني .

يسألني ، مباحثا بيقظتي ، وصوته يرشح بالإشفاق ، والخرج :

— أما زلت صاحبة؟ .. أم راحة أم مجوعة؟ .. ألم تتناولي منومك؟ ..

تھمس شفتای :

— لا بأس! .. ما بي شيء! .. سأنام!

..يرين الصمت .. لا يقترب حسام .. تضغط إصبعه على زر
المصباح، تطفئه .. يوليني ظهره .. تبتعد القامة العالية .. تغيب
الشفتان النديتان .. أناديهِ، ووحشة طارئة، مباغتة، تثلجني :

— حسام! اقترِب! .. هات يدك!

.. قبلنی!

لا يسمعني حسام . تتوالى خطواته مبتعدة، وئيدة، تطرق أديم الأرض . تظل الكلمات موؤودة بين شفتي . . يختفي حسام في العتمة وينغلق الباب . . ودمعة عالققة بأهدابي ، تنساب ، دون أن يراها أحد .

أسمع باب غرفة الجلوس ينطبق ، ووشوشة تتسرب إلي من الجدار قبل أن تمضي خطوات سلمى ، لتكمل الليل في غرفة الأطفال .

. . أصغي إلى المطر يوقع لحنه الحزين على نافذتي ، وينساب على خدي ، مع دمعتي . أرفع الغطاء على رأسي ، ألملم جسدي العليل ، أعانق وحدتي وأغرق في ظلمة السرير .

ورقة ٥ :

تعلو أصوات قادمة من الردهة ، توزع التحيات والأمنيات . تنتشر أصوات القريبات العائدات . . تتطاير من أرجاء غرفة الاستقبال . . تبين حيناً ، وحيناً تغيى .
— . . كيف حالها؟

—

— شفاها الله !

..... —

— كان الله في عونك! . . تقيمين جل الأسبوع قربها!

— . . لله درك يا سلمى! . . مثال الأخت المضحية في سبيل

أختها! . .

..... —

— . . ذلك أفضل! . . المعينة لا تكفي في مثل هذه الحالات!

يرن وقع كؤوس الشاي على الطبق الفضي .

— . . وكيف حال زوجها؟

..... —

يسود الصمت فترة ، ويعود الكلام .

— ألم تستيقظ بعد؟

— هي تحت مفعول الدواء!

— . . الأفضل نقلها إلى المستشفى!

أسمع صوت سلمى ، بنبرة استسلام يشوبها الأسى :

— الطبيب فضل مراقبتها في البيت . لا فائدة من بقائها في

المستشفى ، هكذا قال!

— . . والطفلان؟ كيف حالهما؟

— . . يعودان كل يوم من المدرسة . . يسألان ، متى تنهض من السرير؟ . . متى تشفى؟ . . متى يخرجون معا إلى النزهة؟ كل يوم يتكرر السؤال . . متى؟ . . متى؟ . .

تداخل الأصوات . . تبعد . . تنأى . . يرتطم عصفور معطوب الجناح بزجاج النافذة . . ويسقط . .
. . تنفتح أبواب ، وتنغلق . . وتتقدم موجات ثائرة الزبد ، تعلو السرير . . تغرقني في بحار عميقة ، داجية ، . . بلا ضفاف .

ورقة ٦ :

تناهى إليّ صوت سلمى مفعما بالعاطفة :

— عماد! . . كيف أنت؟ اشتقنا إليك . . متى تعود؟ . . من سنين . . لم نرك . . الحكم الغيابي؟ . . أجل! . . لم ينته بعد! . . دجلة؟ . . هي في حالة حرجة! . . الحمى لا تزول . . تريد رؤيتك! . .

انفتح الباب ، ودخلت سلمى بالهاتف .

قربت السماعة من أذني : — عماد ، من باريس يسأل عنك .

.. عماد؟! .. دفقة حياة هبت من جديد . عاد رفيق

الصبا ، الفتى الجميل الثائر ، يملأ البيت حيوية وعنفوانا .

امتدت يدي إلى السماعه . بصعوبة ، انثت أصابعي عليها .

أحسستها ثقيلة ، لا أقوى على حملها . . سقطت فجأة من

يدي . . تلقفتها سلمى ورفعتها إلى مسمعي .

جاء الصوت حيويًا ، دافئًا :

— دجلة! كيف هي أحوالك؟ . . اشتقت إليك! . . اشتقت إلى

البلاد!

_____ أخـ _____ ر ا ا ا ا

ا!.. عمـ _____ ا د ا!..!..!..!.. أريد .

. أن . . أراك . . أن . . أودعك! . .

_____ أ لـ _____ و ا!..!..!..!.. دجلة!.. كيف

أنت؟ . . لا أسمعك!.. كيف أنت؟ . .

ظل يردد في السماعه . . شفتاي تتحركان . . وصوت عماد ينادي

من بعيد . . شاهدت وجه سلمى يستولي عليه حزن جنائزي ،

وعيناها معلقتان بي ، وهي ترفع السماعه لترد على النداء .

كانت أرجوحة تطوح بي ، في برزخ من الضباب

اللافح . . أشـ _____ رت إلى سـ _____ لمى أن

اقتربي . . ناديهم . . علي . . سناء . . حسام . . أودعهم ، قبل
الرحيل .

ليل آخر :

سقتني سلمى الدواء المخدر للوجع وأقراص الحمى .

قبلت جبيني وأطفأت النور . ولكن ، دون جدوى . الحفارة ظلت في عظامي ، تخفت فترة تحت مفعول المورفين ، ولكنها تعود ثاقبة عظام رجلي . . يدي . فقرات ظهري .

يستبد بالجسد عذاب لا يزول . . أدعو ربي ينقذني . . أدعو ملك الموت يرحمني . . أو . . لأكتب بيدي قدرتي الأخير ! . . يسمعني المطر المتثال على سقوف الليل . . ينساب مدرارا ، مهونا عذاباتي . . أسدل جفني على سمفونية السماء ، ولكن السماء الماطرة لا تخفف حرارتي . . لاتوقف هذه الأرجوحة الرهيبة التي تتلاعب بي ، ترميني حيناً إلى آفاق مضيئة ، وتلقيني حيناً آخر إلى هاويات مظلمة بلا قرار .

أزيح عني الغطاء الصوفي . . تظل الملائة البيضاء ، تغطي جسدي . . أشعر ببلى ساخن يلف نصفي الأسفل . . بين الوعي واللاوعي ، أدرك ما أنا فيه . . يطفو ، بغتة ، خجل خارق مهين . . أذكر الزحافة التي أتت بها سلمى — لوقت الحاجة —

وأخفئها تحت السرير : إعلان صارخ عن عجزني و عدم قدرتي على النهوض للحمام .

..تنساب دمة ساخنة على وجنتي، وصوت خجل فادح يعلو

داخلي بالسـؤال، وقد

تَبَظَ

الوعى .

إذا أصبح الجسم موطنًا للخراب،

أَلَا يَسْتَحِقُّ إِنْ خَفِيَ

سوءاتہ واکرامہ

بالنهاية ؟!

..يجبني المطر المتهاطل على السقوف ، لا يبالي بسخونتي

ومهانتي .. ولكن .. يدي .. ستجيب على المهانة .

في بهرة ضوء ضئيل قادم من شقوق الباب، امتدت

أصابعي المرتجفة.. حطت على طاولة السرير.. حفنة من حبات

المورفين، ستهزم الخراب، وتخرس العذاب الذي لا

ليزول . أت الموت!

مرة واحدة!..

تحسست يدي العلبة . . اسأقت الحبات الصغيرة في كفي . . دنت
يدي من كأس الماء القريب . . سمفونية السماء تعلو بنشيد
المطر . . لا تبالي بنشيج أرضي الحامية . . والسقف يتمايل ،
يميناً ، شمئالا ، مع
النشيد . .

يترقق الماء في كأس الراعشة ، وحفنة الحبات في يدي الحرى ،
لهفى ، تقترب من فمي . . والأمطار تتهاطل . . مع الجدران . . بغتة
أحس الماء البارد يندلق على يدي وفراشي . . تتناثر الحبات من
يدي . . ويعلو صوت انكسار ، سرعان ما ينأى ويتلاشى مع
الأمطار المتهاطلة على السطوح .

رسالة دجلة إلى غسان

.. بلا قلم .. مسدلة الأجفان، بدأت أكتب :
.. الآن، وليلي يودع أنفاسه الأخيرة، أعود إليك يا غسان،
كاسرة أوهامي الماضية، رامية بها إلى قبور النسيان .
.. أعود إليك، لأعبر الحياة الماضية إلى السماوات الأزلية . أفتح
لك أوراقى البيضاء .. أتركها لك .. لتعود دجلة تكتب قصتها
على جسدك .. جسدي .

حين قرأت بداية اعترافاتك النازفة — لأول مرة — في
قاعة ترتفع فيها صور الشهداء : غسان كنفاني، ناجي العلي،
كمال ناصر وكمال عدوان .. وآخرين، في تلك القاعة البسيطة
المهيبة، تلم شتات الكتاب الفلسطينيين في فرعهم بدمشق، نظرت
إليّ هدى حنا، ابنة التهجير والمخيمات، من مقعدها بالصف
الأول، نظرة مليئة بالاعتراف والمحبة والشكر .. فقط، تقدمت

بصمت ونحن نترك المقاعد للخروج ، قبلتني . ودون كلام ، قدمت لي هدية ، كتابها الأخير ، «أريد أن أموت في فلسطين» . مع آخر الحضور ، قرب باب الخروج ، عادت تفتح ذراعيها لتحضنني ببلاغة الصمت ، قبل أن تعود إلى مخيم اليرموك .

عرفت وقتها يا غسان ، أنك كنت عاري الألم ، ساطع المحبة ، وأن نزيك كان حارقا على الورق ،

وأن الشهداء ، على الجدران ، كانوا يباركون جداول دمائهم على التراب ، في الرواية التي أكتب والتي اخترت منها للقراءة أحد الفصول . يومها ، استعدت حماستي لإنهاء روايتي .

ولكن دجلة التي دعتك للشهادة ، ها هي تمضي قبل الألوان ، تـاركة لك بياض الورقة العطشى للنزف الأخير .

الآن ، ألوذ بك !

يلوذ بك البيـاض ، حتى لا يفتك السرطان بالأرض والذاكرة .

.. كنت تقول لي : «الأرض أمانة ، لحمنا ودمنا ، ماضيـنا وغدنا !» وتضيف إذ أستكثر شغفك بكل ما هو أرضي : «الرب

كرم الطين ، ونفث فيه من روحه ، فكيف تتعالين أنت على
الطين؟! .

ها أنت ، أيها العاشق ، منتصر بعشق الأرض الباقي ، وها
أنا مهزومة بعشق الخلود ووهم الألوهية المنهار على سرير الجسد
المكسور!

. . لنلتق إذن . . رغم التضاد ، كقطبي مغناطيس يلتقيان ، ليسري
التيار . . يضيء الكلمات التي سقطت من يدي!

ورقة شاردة

صرخت بك يوما ، مشتعلا بالنبيذ ، وطيفك يخطر أمامي لا مباليا
:

يا سليلة الكاهنة التي أحرقت أشجار قرطاج حتى لا يقترب من
أرضها الرجال الفاتحون!

ها أنت تحرقين أشجارك وتمنعين مدنك ، حاملة بملك لا يزول تبنيه
أوهام الكلمات ولكن الحريق يمتد ، وألسنة اللهب يصيبها الجنون
الأكول!

* * *

أذكر كلماتك التي قرأت يوما في مجلة «الفنون» وأعلاها ، كتب
على امتداد السطر ، بالخط الأحمر الكبير : فصل
من رواية قادمة .

« اتركني أمرغ وجهي في غابة صدرك ! أهيم في الأدغال وأذوب
في رحم اللذة المسكرة !

أترك يدك النارية تشعل الضوء في دمي ، فأنفص راعشة مضيئة ! »

أكان الكذب الجميل ذاك؟ أم هو الصدق الصارخ الذي تعريه الكلمات ، وتدعين أنه جموح الخيال ونسيج الأدب؟!

ومع ذلك ، تولين ظهرك ، متعالية على دعوات الأرض ،
تدقين التراب بقدمي الكبرياء ، لا تخففين الوطاء ، ناسية أن الأرض
من هذه الأجساد ، وأن الله كرم الطين إذ نفخ فيه من روحه .

ترنو إليّ عيناك الوسيعتان ، بنظرة أسرة وشفتك الريانتان
تفتران عن بسمه تملأ وجهك الصبوح . أراك تقبلين وساعداك
البيضاوان يمتدان إليّ بسفر كبير ، وسريعا ما تغيين في فيض حزني
العمي

يـا دجـلـة العـشـق
المقـهـور!

إلى أي جحيم رميتني ، لأخيظ جرحا غامضا عجز عنه الجراح ،
وأداوي ما عزّ على المداوين؟! وأتوغل في دروب الوجد التي
رسمها شتات أوراقك والحفارة التي نخرت جسدك البض الجميل
وطالت مدتك ، مازالت هادرة ، تحفر الأرض ، وتمد أيادي
الأخطبوط ليفترس الذاكرة .

أذكر _____ إنش _____ ادك
يوم _____ : «أنا أكبر من الموت ، وسأعلن ذلك عندما أغادر
الدنيا»

وأضفت ضاحكة : — هذا ما قاله شاعر الحكمة الهندي ،
طاغور .

يا عاشقة طاغور وقاه _____ رتي !
لي _____ ك !

ليك يا ربة قرطاج ، مضيئة _____
الأصابع !

سأقب _____ ل يدك ، في كلماتك التي عانقت الورق .
ألث _____ م أصابعك التي التمعت بجحاتم أُمي
الأثير ، وركضت إلى القلم ، هاربة من حفارة الموت .

سأتنف _____ س رائحة الأرض وزهر برتقال
البيارات الذي سكن أوراقك !

ل _____ ن أتركك للغيباب !

ألم تصرخ اللبوة — سابقا — حاكمة بما تريد؟

ل _____ ن أت _____ رك الج _____ رذان
تأكل الحياة التي انبثقت من يديك ، جداول رقراقة ،

ياد جلالة
الحياة!

obeikandi.com

فـاـصـلٌ آخـيـر

تنهدت السماء أخيرا . ونشرت آخر غيماتها الممطرة على الأرض . بين السحب الرصاصية الباقية ، تسلفت ظلال أشعة باهتة لامست رؤوس الرجال الواقفين أمام الباب المفتوح للريح . ما عاد مكان للجلوس وقد احتشدت الدار بالمعزين . . أقبل ممثل اتحاد الكتاب . وقف مع بعض الكتاب والصحفيين . على الوجوه المكفهرة ، ارتسم سؤال الموت العبثي المفاجئ ، وقد التقوا ، بلا موعد ، في ضيافتي ، مع غيابي الأخير ، تجمع شتاتهم حكمة النهايات .

أنهى المقرئون ترتيل سور من القرآن الكريم ، وارتفع صوت الإمام ، يتموج مرخما ، يتلو — بعد آخر السور القصيرة — الفاتحة . ختم بنبرة خشوع غامر ، في صمت الحاضرين المهيب بـ «آمين—————ن!»

وقف الرجال واهتز البيت بالتأمين والتكبير .

لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
 الْحَيُّ الْقَيُّومُ
 لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
 الْحَيُّ الْقَيُّومُ !
 لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
 الْحَيُّ الْقَيُّومُ !
 لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
 الْحَيُّ الْقَيُّومُ !

وأسرعوا إليّ . سبقهم عليّ . جثا على ركبتيه وانحنى يقبل
 جبيني ، مجهشا بالبكاء . امتدت أيادي الرجال توقفه . أمسكه
 حسام بقوة وضمه إليه .

وسَّع الرجال خطاهم رافعيني إلى السماء وسط العويل
 الذي ارتفع .

صرخت سناء فجأة وأجهشت بالبكاء ، وسط الحشد الماضي إلى
 الحديقة إثر جثمانني المرفوع :

! _ _ _ _ _ . _ _ _ _ _ !

— حبيتي! .. لن أتركك! .. أبــــــــــــــــــــدا! كل مساء
سأتيك! أدخل أحلامك! .. أحكي لك قصة جديدة لم تعرفها من
قبل!

عانقتها القريبات ، مهدئات . تهاوت بين أيديهن . أسرعت سلمى
بأكية ، ترشها بماء الزهر ، وتستجيب لندائها للحاق بي .

اقترَب الرجال من بوابة الحديقة . . لا مست أعمدة النعش
المرفوع أغصان شجيرة الياسمين المبللة، وقد اتكأت على قوس
البوابة. انهالت دموع الياسمين بعد المطر عليّ وعلى رؤوس
الماضين بي إلى المقر الأخير.

لمحت غسان يمشي، في صمت، مطرفاً بين الرجال،
وعيناه إلى الأرض المبللة بالمطر وتحت ذراعه ملفي الأخير. بدا
حسام يتقدم الجنازة، ويُد الخُطى، ويده تشد كتف عليّ. وظل

عماد غائباً عن موكب جنازتي ، مكبلاً في بلاد المهجر بحكم جائر
شرده به الوطن .

ناحت الريح الباردة. حلقت معها فوقهم وهم يدخلون المقبرة
ويسيرون إلى حيث جدي، العامري. جواره، أنزلوا النعش،
وحدّقت الحفرة بى.

طرت بعيدا، مع الريح . . كان هدير البحر القريب ،
أسفل الربوة، يعلو على ضربات فأس في المقبرة .
وكنت أعلو، على غيمة بيضاء، ساجدة في درب نوراني، لا
نهائي . .

حکمتہ :
 فی اقباسہ شاہدت الشاعر ابن المعتز . تقدم مسلما منشدا يذكر

ألا، إنم
الجسم للروح
مطابقة

ولا بـدـيـومـا
أن تعـرّى مـن
الرحـل
وغاب طيفه . .

في بهاء البياض ، جاء المتنبي ينشد مختالا :

كـم قـد
قُتِلْتُ وَكـم
قـد مـت
عندكـم
ثـمّ انـتـفـضـت
فـزال القـبـر
والكـفـن

ومضى راحلا في البياض .

عم الصمت الجليل ، وطيف من النور يخطر من أعماق الدرب
وأذيال جبة بيضاء تعبر بين المريدين .

تقدم الحلاج ، مناجيا معشوقه ، ساخرا من رماده الذي نثر — بعد
صلبه وحرقه — من أعلى صومعة في بغداد .

*

*

*

عدت ألقى نظرة أخيرة على الأرض .

هناك ، على الربوة ، بين البحر والمدينة ، ووري جسدي التراب
وخلت المقبرة . وعاد الفأس يحفر حذو السور المحاذي لشارع
المدرسة قبرا جديدا . وعلى الجانب الآخر من السور ، كان أطفال
يستذكرون ، متكئين على الجدار فاتحين كتاب نصوصهم
المدرسي .

— سنمثل اليوم نص : طفل فلسطين !

— قالت سيدتي ، ستدعو لنا يوما الكاتبة .

. . سيكون لنا لقاء مع دجلة العامري !

بدأت ضربات الفأس تتلاشى ، وأصوات الأطفال ترتفع
بالنقاش . تنتشر زقزقتها تشق الفضاء ، ورنين الجرس يدعوهم
للدخول .

زوروا موقعنا

[/http://www.elmohrereladbe.com](http://www.elmohrereladbe.com)

وصفحتنا على الفيسبوك

[/https://www.facebook.com/elmohrereladbe](https://www.facebook.com/elmohrereladbe)